المسلمون في القوقاز والبلقان

إطلالة على جذور الصراع الحاضر

الدكتور جمال فوزي محمد

دار الوفاء

المسلمون

في القوقاز والبلقان

إطلالة على جذور الصراع الحاضر

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج. م. ع - المنصورة
الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب ٢٣٠
ت / ٢٢٥٦٢٣٠ . ٢٢٥٦٢٣٠ فاكس ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠ محمول ١٧٠٥٦٥٨ / ٠١٠
E-MAIL:darelwafa@HOTMAIL.COM
WWW.EL-WAFAA.COM

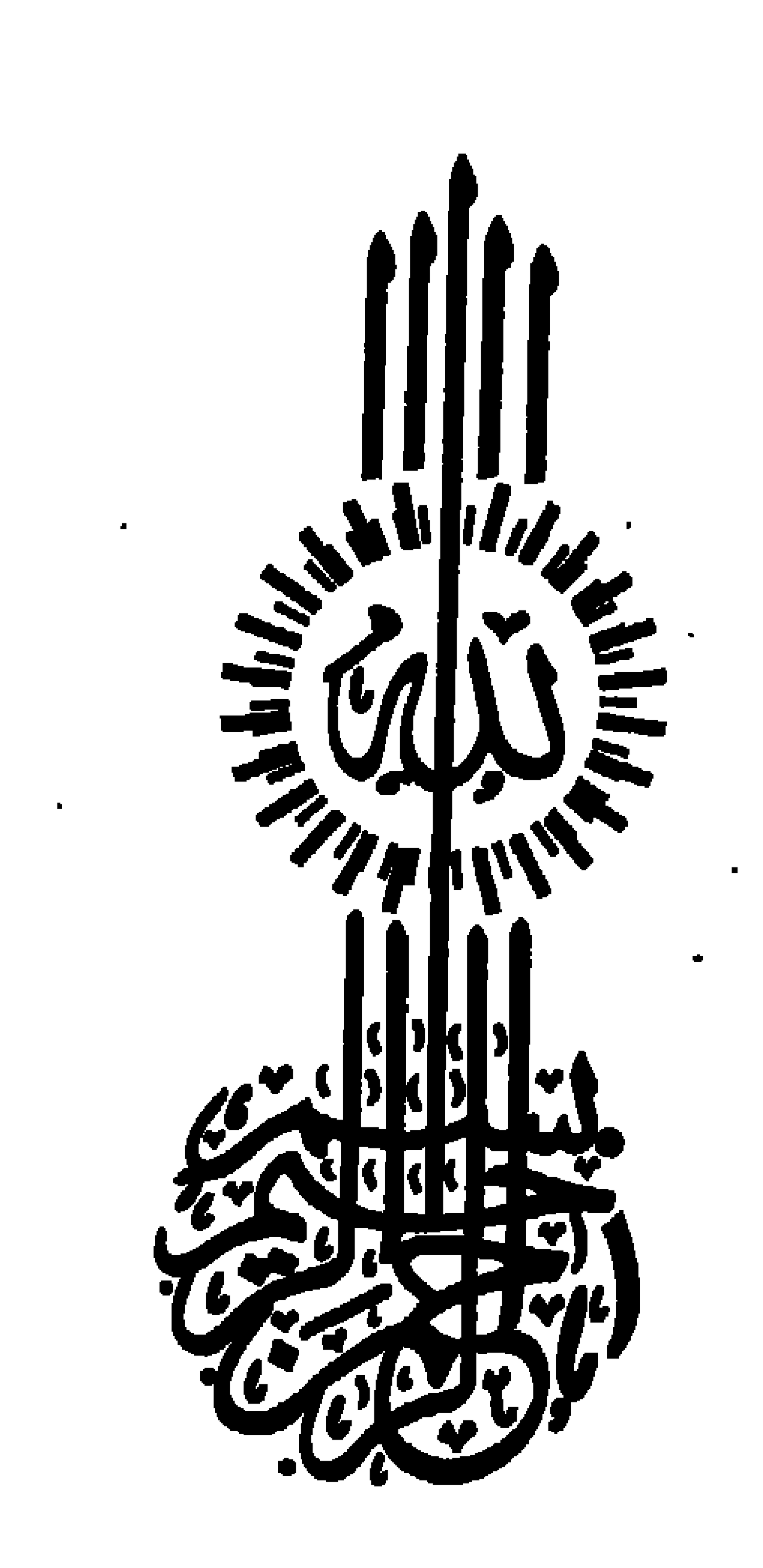
المسلمون في القوقاز والبلقان

إطلالة على جذور الصراع الحاضر

الدكتور جمال فوزى محمد

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الوفاء



تقديم

من الأندلس ـ الفردوس المفقود ـ إلى تيمور الشرقية ، ما يزال الجسد الإسلامى ينزف بسبب ما يقتطع منه من أعضاء وما يقتص من أطراف المرة تلو المرة.

وقد ظل أقصى الطرف الشمالى الغربى من ديار الإسلام نسياً منسياً فى الذاكرة الإسلامية ، إلى أن قفز به إلى موقع الصدارة فى السنوات الأخيرة ما تعرض وما يزال يتعرض له المسلمون هناك من كوارث وأهوال ومذابح بشعة بدءاً بالبوسنة فالشيشان فكوسوفا فداغستان فالشيشان مرة أخرى ، وليست الأخيرة فى أغلب الظن .

فى هذه الإطلالة رغبت فى إلقاء الضوء على جذور الصرعات الحالية فى هذه المنطقة بمحاولة التعرف على تاريخ المسلمين فيها خصوصاً زمن العثمانيين ، فجاء هذا الكتاب فى أربعة فصول :

الأول : تحدثت فيه بإيجاز عن التاريخ السياسى للدولة العثمانية ،وطبيعتها الفتحية الجهادية،وتوجهها غرباً نحو أوربا،والعوامل التى عوقت هذا التوجه خصوصاً الصدام مع القوى الإسلامية الأخرى كالصفويين والمماليك .

الثانى : تناولت فيه تاريخ الإسلام والمسلمين فى بلاد القوقاز منذ الفتح الإسلامى حتى بداية الصعود العثمانى فى مطالع العصر الحديث .

الثالث : تعرضت فيه للحديث عن أوضاع المسلمين ببلاد القوقاز زمن العثمانيين، وضغط الروس عليهم من الشمال فى العصرين القيصرى والبلشفى السوفيتى ، وملامح مقاومتهم ، وتطور حركات تحررهم من قبضة المستعمرين .

الرابع : أفردته للحديث عن الإسلام فى البلقان منذ دخول العثمانيين إليها حتى انحسار مدهم عنها إبان عهود ضعفهم ، وما خلفه ذلك من ضغوط شديدة مورست ضد المسلمين وكياناتهم فى هذه المنطقة ، واستمرت توابعها حتى الوقت الحاضر .

وأرجو أن أكون قد وفقت من خلال هذه الإطلالة الموجزة فى عرض السمات العامة لتاريخ الإسلام والمسلمين فى بلاد القوقاز والبلقان ، ذلك التاريخ الذى يشهد لأهله أنهم حين يمتلكون القوة وتتيسر لهم الفتوح ، فإنهم يكونون أكثر تسامحا وأعظم نبلا وأرقى إنسانية تجاه الآخر ، فى مقابل عجرفة واستبداد وغطرسة وبلطجة وقسوة وعدوانية هذا الآخر حيالهم حين يمتلك أسباب القوة وتتقلب الحال لصالحه . والله المستعان .

الفصل الأول

موجز التاريخ السياسى للدولة العثمانية

موجز التاريخ السياسى للدولة العثمانية

نسب العثمانيين وبداية ظهورهم :

ينتمى العثمانيون إلى عشيرة قايى إحدى عشائر قبائل الغز التركية ، هاجروا من آسيا الوسطى إلى إيران ، ثم هاجروا من هناك فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وتوطنوا منطقة الجزيرة شمال العراق ، فلما قدم المغول فى زحفهم المدمر من الشرق فى بداية القرن السابع الهجرى انتهى بهم التجوال إلى منطقة الأناضول (آسيا الصغرى) . ثم حاولوا بعد ذلك العثور على مكان أفضل ، فاتجهوا نحو حلب بالشام ، وبينما كانوا يعبرون نهر الفرات غرق سليمان شاه سنة (٦٢٦ هـ /١٢٢٨م) . كان ذلك زمن السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الأول (١) .

واختلف القوم بعد وفاة سليمان فافترق عنهم قسم وانتخب الباقون ـ وهم من خاصة سليمان ـ ابنه أرطغرل رئيسا عليهم (٢) .

وفى طريق عودته إلى الأناضول بعد غرق أبيه شاهد جيشين مشتبكين ،فوقف وقومه على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرجل من القبائل الحربية ، ولما أنس الضعف فى أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه إن لم يمد إليه يد العون ، دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين ، وهاجم الجيش المنتصر بقوة أوقعت الرعب فى صفوفه التى كادت تفوز لولا هذا المدد الفجائى ، فانهزمت شر هزيمة .

بعد تمام النصر عرف أرطغرل أن الله ساقه لنجدة جيش السلطان علاء الدين

---

(١) أحد سلاطين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وهم أحد الفروع التى انشطرت إليها الدولة السلجوقية الكبرى ، سقطت دولتهم حوالى سنة(٧٠٨هـ). انظر فى تاريخهم : ابن البيبى :سلجوق نامه ، ترجمه عن الفارسية إلى العربية د . محمد السعيد جمال الدين ، الدوحة ، قطر ، سنة (١٩٩٥ م) .

(٢) د . أحمد السعيد سليمان (مترجم ومعلق ومضيف) : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف ص ٤٤١ وما بعدها .

سلطان سلاجقة الروم ، وكان أن كافأه هذا السلطان على مساعدته لجيشه، وكان يمنحه عقب كل ظفر أراضى جديدة وأموالاً جزيلة ، وعرفت قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما فى مقدمة جيوشه .

فى غضون ذلك تزوج عثمان أحد أبناء أرطغرل ، والذى تنسب إليه الدولة العثمانية ، ولما توفى أبوه سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١م) عينه السلطان السلجوقى مكانه ، وفى تلك الآونة ولد له ابنه أورخان ، ولم يلبث عثمان أن حصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة «قره حصار» فمنح لقب «بك» وأقطع جميع الأراضى والقلاع التى فتحها ، وأجاز له السلطان ضرب العملة وذكر اسمه فى خطبة الجمعة (١) .

وفى سنة (٦٩٩هـ / ١٣٠٠م) تقريبا أغارت جموع التتار على بلاد آسيا الصغرى ، وفى أثناء ذلك قتل السلطان علاء الدين السلجوقى بأيديهم ، ثم توفى غياث الدين مسعود الثانى الذى أقاموه مكانه سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م) .

بوفاة غياث الدين مسعود انتهى سلطان سلاجقة الأناضول ، وانفتح المجال للعثمانيين فاستأثر عثمان بجميع الأراضى المقطعة له ولقب نفسه «بادشاه»(٢) آل عثمان ، وجعل مقر ملكه مدينة «يكى شهر» وأخذ فى توسيعها و تحصينها ، ثم شرع فى توسيع دائرة أملاكه ، فأرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو القتال، فأسلم بعضهم وانضم إليه ،وقبل البعض دفع الخراج، واستعان الباقون على العثمانيين بالتتار واستدعوهم لنجدتهم، فلم يعبأ السلطان عثمان بهم ، بل هيأ جيشا جرارا لمحاربتهم تحت إمرة ابنه «أورخان» الذى شتت شملهم بعد حرب عنيفة ، ثم عاد مسرعا لمحاصرة مدينة بورصة (٣) سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م) ودخلها بعد حصار دام عشر سنوات،

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ،الطبعة الثانية (١٣١٤ هـ/ ١٨٩٦) ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) فارسية بمعنى : ملك أوسلطان أو حاكم مطلق . انظر : د .إبراهيم الدسوقى شتا : المعجم الفارسى الكبير ، مدبولى (١٩٩٢م) المجلد الأول .

(٣) مدينة بآسيا الصغرى شهيرة بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية ، وهى لذلك مصيف للأغنياء محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ص ٤١ هامش (٣) وهى أيضاً « بروسة » .

فتح خلالها جميع ما حولها من قلاع وحصون ، إذ أصدر إمبراطور الروم بالقسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب ، فأخلاها ودخلها أورخان وعساكره ،ولم يتعرض لأهلها بسوء ، وأسلم حاكمها وأعطى لقب «بك» وصار من مشاهير قواد العثمانيين .

تميز عثمان بالتعمق فى الدين مع البساطة ،وأحاط نفسه بالفقهاء ومال نحو العدالة ، واتسمت شخصيته بالعاطفة الدينية الممتزجة بالروح العسكرية ،هذا بالإضافة إلى مقدرة إدارية جعلته ينجح فى التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى الإدارة المستقرة ، وقد تابع سياسة أبيه التوسعية وواصل اهتمامه بالجيش وعنايته بتنظيم الحكومة ، فاعتبر المؤسس الأول للدولة ونسبت إليه، واتخذ لقب «سلطان» (١) .

أوصى عثمان لابنه الثانى أورخان لاتصافه بعلو الهمة والشجاعة والإقدام ، ولم يوص لابنه البكر علاء الدين لميله إلى الورع والعزلة ، ومن حسن التوفيق أن علاء الدين لم يعارض فى هذه الوصية التى حرمته من ملك عظيم بل قبلها مقدما الصالح العام على الصالح الخاص ، واكتفى بمنصب الصدارة العظمى ـ الوزارة ـ التى قلده أخوه إياها ، فاختص علاء الدين بتدبير الأمور الداخلية ، وتفرغ أورخان للفتوحات ونشر الراية العثمانية على كل ما وصلت إليه يداه من البلاد المجاورة .

ومن أهم أعمال علاء الدين : أنه وضع نظاما للجيوش يجعلها نظامية دائمة، وكانت قبل ذلك لا تجمع إلا وقت الحرب وتفرق بعده ، ثم خشى من تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التابع إليها وانفصام عرى الوحدة العثمانية التى كان كل

---

(١) د . شفيق العيارى: تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث(١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م)،ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

وهناك عدة آراء حول إسلام عشيرة العثمانيين ، فمن قائل : إنها قدمت إلى المنطقة وهى مسلمة ، وآخرون يرون أنها أسلمت حينما احتكت بالسلاجقة المسلمين بآسيا الصغرى ، وهناك رأى يذهب إلى أن عثمان هو أول من أسلم منهم . د . يسرى زيدان : التاريخ السياسى ومظاهر الحضارة فى الشرق الإسلامى زمن المماليك والعثمانيين ، دار النصر ، (١٤١٨هـ/١٧٩٧م) ، ص١٠٥ ، هامش (٣) .

سعيهم فى إيجادها ، فأشار عليه أحد فحول عصره واسمه «قره خليل» ـ و هو الذى صار فيما بعد وزيرا أولا باسم خير الدين باشا ـ بأخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية إسلامية عسكرية ؛ بحيث لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد ، ولعدم وجود أقارب لهم بين أهالى لا يخشى من تحزبهم معهم ، فأعجب السلطان أورخان هذا الرأى وأمر بإنفاذه ، ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل زار بهم الحاج «بكتاش» (١) شيخ الطريقة البكتاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء واقترح أن يكون اسمهم «ينى شارى» ويرسم بالتركية «يكيجارى» أى الجيش الجديد ، ثم حرف فى العربية إلى «إنكشارى» (٢) . وقد ارتقى هذا الجيش فى النظام وزاد عدده حتى صار لا يعول إلا عليه فى الحروب ، وكان من أكبر وأهم عوامل امتداد سلطة ومساحة الدولة العثمانية . ثم خرج فيما بعد عن حدوده ودوره المنوط به وتعدى أفراده واستبدوا ، مما جعلهم سببا فى تأخر الدولة وتقهقرها .

---

(١) د . إبراهيم شتا : المعجم الفارسى الكبير ، المجلد الأول، حيث يذكر أن «بكتاش» (٧٤٨ هـ/١٣٣٧م) اسم ولى مشهور كون طريقة صوفية فى آسيا الصغرى ، عاشت حتى سقوط الخلافة العثمانية. وانظر عنها بالتفصيل : نوريس : الإسلام فى البلقان ، ترجمة : عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة ص ١١١ ـ ١٢١ .

(٢) مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى(١٤١٦ هـ / ١٩٩٩م) ص ٥٠ ، حيث يذكر أن تعداد جيش الإنكشارية بلغ فى عهد السلطان سليمان القانونى حوالى نصف مليون جندى ، وكان مقسما بحسب التنظيمات العسكرية إلى عدد كبير من الوحدات تعرف كل وحدة منها باسم : أوجاق .

وكان يرأس أوجاقات الإنكشارية جميعا أغا الإنكشارية ، يعاونه عدد من الضباط الكبار ، وهذه الأوجاقات بدورها كانت مقسمة إلى عدة أورطات ـ كتائب أو سرايا ـ ولكل أورطة هيئة قيادة وإمام مدرسة ولها اسمها المميز وعلمها المميز ، وفى القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين تمتع هذا الجيش بسلطات واسعة نتيجة لسمعته ؛ نظرا للانتصارات التى حققها للدولة ، فكان بوسع قادته إقامة سلطان مكان آخر ، ثم ما لبث بعد ذلك أن أصبح أداة للشغب والفوضى والفساد على مدى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، الأمر الذى انتهى بالقضاء عليه فى عهد السلطان محمود الثانى سنة (١٢٤٢ هـ/١٨٢٦م) .

وانظر فى ذلك أيضاً : نويل مالكوم : البوسنة ، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٧م ص) ٣٠٦ ، ٣٠٨ .

صعود نجم العثمانيين :

أدرك العثمانيون أن التوسع فى اتجاه الغرب والشمال الغربى على حساب الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى والبلقان هو مجال الجهاد الحقيقى ، بل هو خير طريق لتحقيق آمالهم فى تكوين دولة قوية تحظى بتأييد العالم الإسلامى وتنال إعجابه .

فالدولة البيزنطية التى طال عليها الزمن ودخلت فى مرحلة الشيخوخة لم تكن فى حالة تسمح لها بالتصدى لتلك القوة الناشئة الفتية ، والتى تفيض شجاعة وحماسة للإسلام ، ورغبة فى رفع لوائه ونشر سلطانه، والإمارات المتناثرة التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم فى الشرق لن تمكن العثمانيين من التوسع على حسابها بسهولة [1].

من هنا جاء طابعها الخاص بها والذى ميزها عن كثير من غيرها من الدول التى قامت فى ديار الإسلام عبر تاريخ المسلمين . فقد توجهت منذ البداية بكل قواها إلى خارج هذه الديار نحو الأعداء المتربصين المنتهزين لأى لحظة ضعف تمكنهم من الانتقاص من أطرافها كالدولة البيزنطية وما وراءها .

لم يمض وقت طويل على تولية أورخان حتى شرع فى استئناف حركة الفتوحات العثمانية ، فاستولى على «إزنيق» [2] سنة (٧٣١ هـ/ ١٣٣٠م) وعبر عسكره مضيق الدردنيل[3] ، واستولى فى الغرب على مدينة «غاليبولى» سنة (٧٥٨هـ) ، وبدؤوا مشروعاتهم فى فتح الممتلكات البيزنطية فى أوربا .

وتصاعد جهاد العثمانيين فى شرق أوربا عبر عهود سلاطينهم العظام أمثال : مراد الأول ، ومحمد الفاتح ، وسليمان القانونى وغيرهم ، حتى مكنوا للإسلام فى هذه المنطقة تمكينا مازالت آثاره باقية شاهدة إلى اليوم رغم كل محاولات المسخ

---

(١) د . شفيق العيارى : تاريخ الشرق الإسلامى ص ١٤٩ .

(٢) مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى أصل اسمها نيقة واقعة شرق مدينة بورصة . محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ص ٤١ ، هامش (٢) .

(٣) يربط بين بحر مرمرة المحصور بينه وبين مضيق البوسفور جنوب البحر الأسود وبحر إيجة .

والتشوية وجرائم الإبادة والتطهير العرقى [1] ، ثم تآزرت عوامل عديدة منها : ضعف السلاطين ، وفساد وتسلط الإنكشارية ، ومؤامرات بعض العناصر (كاليهود)، وتكالب الأعداء الخارجيين على إضعاف هذا الكيان التاريخى العملاق، وبدأت جهودهم تؤتى ثمارها شيئا فشيئا حتى تزلزلت أركان الخلافة العثمانية (رابطة المسلمين) [2] وفقدت أجزاءها وأطرافها المترامية فى مختلف الجهات ، إلى أن سقطت على يد جماعة الاتحاد والترقى بقيادة مصطفى كمال أتاتورك ، وتحولت وريثتها تركيا الحديثة إلى دولة علمانية تكن جفاء قويا نحو الإسلام من الناحية الرسمية (٣).

وقد كان من أقوى العوامل فى إضعاف الدولة العثمانية هو صدامها المبكر

---

(١) ستتعرض لكل هـذا بالتفصيل عند الحديث، عن : الإسلام فى شرق أوربا زمن العثمانيين فى الفصل الرابع .

ولم يعوق جهاد العثمانيين قليلا - إغارة تيمور لنك التركى المغولى الذى يتصل نسبه بجنكيز خان من جهة النساء ، وقد ورث إمارة صغيرة ببلاد ما وراء النهر وشرع فى التوسع فيما حوله فى آسيا الوسطى وإيران وشمال الهند وجنوب روسيا والعراق والشام ، واصطدم بالعثمانيين ، وتقابل مع السلطان بايزيد الأول فى سهل أنقرة حيث استبسل السلطان العثمانى ، ولكن فرار بعض أمرائه أوقعه مع بعض أولاده فى الأسر سنة (٨٠٤هـ / ١٤٠٢م) فظل فى أسر تيمور لنك إلى أن توفى (٨٠٥) هـ فتجزأت دولة العثمانيين فى الشرق والغرب ولكنهم ما لبثوا أن توحدت جهودهم والتأم شمل دولتهم شيئا فشيئا ، واستأنفوا حركة توسعهم من جديد .

حول هذه الدولة التيمورية انظر مثلا : ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، تحقيق : على محمد عمر ، القاهرة ١٩٧٩م ، فامبرى : تاريخ بخارى ، ترجمة : د . الساداتى ، نهضة الشرق، ط٢ ، سنة (١٩٨٧م) ص ٢٥ وما بعدها ،منروف :العرب والإسلام فى أوزبكستان ، بيروت ، ط١، ١٩٩٦م ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) رغم بعض مساوئها ومثالب بعض سلاطينها وولاتها في الحكم ، فقد كانت على أية حال رمزا لوحدة المسلمين التى فقدوها بزوالها و انشطروا إلى أقطار ضيقة وأقاليم متنافرة تفصل بينها حدود مصطنعة حساسة متوترة ، ورغم ذلك فلم ينصلح حال المسلمين كما بشر دعاة تقويض الخلافة بل سار من سيى إلى أسوأ كما نرى ونشاهد .

(٣) حول تلك العوامل وهذه النهاية انظر مثلا : روبير مانتران (محرر) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : بشير السباعى ، دار الفكر للدراسات والنشر ، د . عبد الحليم عويس : العقل المسلم فى مرحلة الصراع الفكرى دار الصحوة ،ط٢،(١٩٩٩م)ص ٦٥ ، وما بعدها ، د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الأنجلو المصرية ، صفحات عديدة متفرقة ، جليل العطية : أصول الصهيونية ، مجلة العربى عدد (٣٧٧) أبريل (١٩٩٠م).

وصراعها المرير مع قوتين كبيرتين من قوى الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، أولاهما هى دولة المماليك بمصر والشام ومجاوراتها (١) ، وثانيتهما هى :

الدولة الصفوية :

واصل العثمانيون فتوحاتهم فى أوربا حتى إنهم فى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى قد تمكنوا من الاستيلاء على آسيا الصغرى والبلقان ، ووصلوا إلى أواسط أوربا وحاصروا «فينا» عاصمة النمسا ، وفى تلك الآونة كان على العثمانيين أن يختاوروا أحد أمرين : إما مواصلة التوسع فى أوربا على حساب القوى النصرانية ،وهذا اتجاه يعطى تحركاتهم طابع الجهاد الإسلامى ، وإما الاكتفاء بما حققوه فى أوربا والتوجه شرقا للتوسع على حساب القوى الإسلامية المجاورة ، وقد اختار السلطان سليم الأول الخيار الثانى ، وقد ساعد على ذلك أن الخلاف كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية ، وبين الصفويين الشيعة فى إيران من ناحية أخرى (٢) .

وفى تعليل تغليب خيار التحول شرقا لدى العثمانيين تتراءى عدة أسباب منها: ازدياد الخطر الصفوى الشيعى الذى زحف إلى صميم أملاك الدولة العثمانية بوسط الأناضول ، واستفحال الخطر البرتغالى الذى هدد التجارة فى البحار العربية كالبحر الأحمر والخليج العربى وطوق الشرق الإسلامى(٣). يضاف إلى ذلك أنه بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية وإسقاطهم للدولة البيزنطية بعد محاولات امتدت فى عمر الزمن نحو ثمانية قرون ، سيطر على هؤلاء الفاتحين ربما شعور بالزهو فرغبوا أن يكونوا سادة العالم الإسلامى ومحط أنظار المسلمين ، .فهم فى نظرهم يدعمون مكانتهم من الناحية الروحية بنقل الخلافة إلى عاصمتهم إسلام بول

---

(١) راجع فيه على سبيل المثال : شمس الدين السيوطى :إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق : د . أحمد رمضان أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٨٢م) ، صفحات كثيرة متفرقة ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة(١٩٩٤م) ، د . قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة الكويتية عدد (١٤٩) مايو (١٩٩٠م) .

(٢) د . شفيق العيارى : تاريخ الشرق الإسلامى ص ١٠٤ .

(٣) د . يسرى زيدان : الشرق الإسلامى ص ١٩ هامش (٢) .

(استانبول) بدلا من القاهرة ، ولماذا لا يقومون بشرف حماية الحرمين الشريفين ورعايتهما (١) .

ترجع نسبة الصفويين إلى اسم جد ملوك هذه الأسرة وهو الشيخ صفى الدين أبو إسحاق الأردبيلى ، الذى ولد عام (٦٥٠هـ) وتوفى عام (٧٣٥هـ) ، ودفن فى مدينة أردبيل حيث توجد مقبرته (٢) .

كان الشيخ صفى الدين من عارفى عهده المشاهير ، يرتاد مجلسه كثير من المريدين والأتباع ، وكان فى بداية أمره مريدا للشيخ تاج الدين الزاهد الجيلانى وتزوج ابنته ، فلما مات شيخه وحموه عام (٧٠٠ هـ) خلفه فى مقام الإرشاد ، والتف جميع مريدى الشيخ الزاهد حول صفى الدين ، وبعد أن توفى الشيخ صفى الدين خلفه ابنه الشيخ صدر الدين موسى (٧٠٤ ـ ٧٩٤ هـ) فى مقام الإرشاد ، وهاجر من أردبيل إلى جيلان ـ شمال غربى إيران ـ ثم عاد إلى أردبيل .

وبعد وفاة الشيخ صدر الدين خلفه أحد أبنائه ، بنَاء على وصيته ، وهو سلطان خواجة على ، وظل فى مقام الإرشاد حتى عام (٨٣٠هـ) . والشاه إسماعيل مؤسس حكم الأسرة الصفوية هو ابن سلطان حيدر بن سلطان جنيد بن صدر الدين إبراهيم بن سلطان خواجة على .

وفى أوائل سنة (٩٠٥هـ) قدم إسماعيل إلى أردبيل ، وقد التف حوله مريدون كثيرون كانوا يسلكون طريقة آبائه ، وقد انبثت جماعاتهم باسم الصوفية فى جميع بلاد أذربيجان وأرمينية والجزيرة ، وفى أرزنجان إحدى المدن بهذه المنطقة التف حوله نحو سبعة آلاف منهم كانوا من الترك من طوائف مختلفة ، وكان كل واحد منهم يضع على رأسه قلنسوة من قماش أحمر ؛ لذا عرفوا بالقزلباش أى ذوو الرؤوس الحمراء ، وقد عمت هذه التسمية ملوك وجنود وأتباع الصفويين .

---

(١) د . شفيق العيارى : تاريخ الشرق الإسلامى ص ١٧٤ .

(٢) نسب مؤرخو العصر الصفوى فى إيران هؤلاء السلاطين إلى الإمام موسى الكاظم من ناحية آبائهم ، وأنشؤوا لهم شجرة هذا النسب ، إلا أن هذه النسبة كاذبة ، ولم ترد فى المؤلفات التى ألفت قبل عهد الشاه طهماسب الأول فى أيام الشاه إسماعيل وأجداده . عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمه عن الفارسية د . محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة (١٩٩٠م) ص ٦٤٠ .

لم يكن الشاه إسماعيل قد زاد عن الثالثة عشر من عمره حين شرع فى تأسيس أسرة حاكمة ، فاستولى على مناطق كثيرة وعلى تبريز بأذربيجان وآثرها عاصمة له ، واعتلى عرش السلطنة وسك العملة ، وأقر مذهب الشيعة الاثنا عشرية مذهبا رسميا للدولة ، ثم جرد جيوشه نحو عراق العجم ـ منطقة غربى إيران الآن ـ واستولى على شيراز ، وفى عام (٩١٤هـ)سيطر على العراق وعلى خراسان سنة (٩١٦هـ) (١) .

وفى حين تأسيس الدولة الصفوية فى إيران بلغت دولة الأتراك العثمانيين فى الأناضول والبلقان ذروة القوة والعظمة ، وكان هؤلاء الأتراك الذين اعتنقوا المذهب السنى ، خلافا لمؤسس الأسرة الصفوية ، وجالدوا ـ وما يزالون ـ بسيوفهم لنشر الإسلام ، كانوا يرقبون تشكل دولة كبرى فى شرق ممتلكاتهم بعين العداء ، خاصة أن الصفويين كانوا على عداء معهم من الناحية المذهبية ـ كما سبق الذكر ـ وكان الشاه إسماعيل لا يألو أدنى جهد لاجتثاث شأفة المذهب السنى من إيران .

وفى سنة (٩١٨هـ) صارت السلطنة العثمانية من نصيب السلطان سليم خان الأول (٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ) أحد أقوى السلاطين العثمانيين وأكثرهم فتحا ، فبدأ هذا السلطان فى إظهار بغضه للشيعة ، وحين سمع أن الشاه إسماعيل الصفوى دخل فى علاقات مع أعداء السلاطين العثمانيين ـ أى ملوك المجر ومماليك مصر ـ الذين كانوا يؤلبون شاه إيران ضد العثمانيين ، أنفذ جيشا إلى الجزيرة وأذربيجان ، فخف الشاه إسماعيل فى أوائل شهر رجب (٩٢٠هـ) من أصفهان إلى أذربيجان ، وتقدم محمد خان استاجلوا حاكم ديار بكر ببلاد الجزيرة أيضا بجيش لعون الملك الصفوى ، واصطف جنود الفريقين فى صحراء تشالدران فى شرق بحيرة أورمية غربى إيران ، وكان جيش الشاه إسماعيل يتألف من ستين ألف فارس ، فى حين أن السلطان سليم بلغ جيشه مائة وعشرين ألف جند مسلح ببنادق جديدة ومدافع قوية ، ومع أن الشاه إسماعيل وقواده قد أبلوا فى هذه الحرب بلاء حسنا إلا أنه بسبب كثرة جيش الخصم وقوة أسلحتهم النارية ، حاقت بهم الهزيمة وقتل محمد

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ، ص ٦٣٩ ـ ٦٤٢ .

خان استاجلوا وجماعة كثيرة من القواد ، وتقهقر الشاه إسماعيل إلى تبريز ، ثم فر عنها فاستولى عليها السلطان سليم ولم يطل مقامه بها ، فأخلاها وعاد إليها الشاه إسماعيل .

ومع أن موقعة «تشالدران» كانت ضربة شديدة لقوة الشاه الصفوى ، وكان من نتائجها ضم السلطان سليم ديار بكر وبلاد الأكراد ، إلا أنها لم تكن قاصمة ، فقد استطاع الصفويون لم شملهم واستعادة كثيرا من قوتهم بسرعة (١) .

وقد تمادى الصفويون فى عدائهم للعثمانيين إلى حد الاستعانة بالأجانب عليهم ، فقد كان الصفويون دائمى التودد لنصارى أوربا المعادين للعثمانيين ، وكانوا يستقبلون سفراءهم ويبعثون إليهم بمبعوثيهم (٢) .

وفى عام (٩٢٦هـ) بلغ السلطان سليمان القانونى عرش السلطنة العثمانية بعد وفاة السلطان سليم الأول ، وحاز فتوحات عظيمة فى أوربا وحصل لذلك على شهرة واسعة .

وفى عام (٩٣٩هـ) ألبه بعض الأمراء المنشقين عن الصفويين فهاجم أذربيجان والعراق العربى واستولى على بغداد ، ولكن السلطان القانونى عاد فى عام (٩٦٧هـ) وأرسل إلى مقر الشاه طهماسب الصفوى عدداً من السفراء ، محملين بالتحف والهدايا لطلب الصلح ، وتصالح الطرفان عام (٩٦٨هـ) بعد تبادل السفراء ، وقد استمر هذا الصلح حتى آخر سلطنة السلطان سليمان ، أى حتى عام (٩٧٤هـ) ، ولما تولى سليم خان الثانى السلطنة العثمانية سلك كذلك طريقة المودة مع طهماسب وأرسل سفيرا لهذا الغرض .

وقد ظلت علاقات الصفويين والعثمانيين فى تقلب وشد وجذب ، والنزاعات قائمة على الحدود بينهما فى غربى إيران وديار بكر والعراق وشرقى الأناضول، خصوصا فى عهد الشاه الصفوى عباس الكبير (٩٩٦ ـ ١٠٣٨هـ) الذى حفظ

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ص ٦٤٥ ، ٦٤٦ .

(٢) إقبال : تاريخ إيران ص ٦٤٧ .

حدود إيران الغربية ووسعها ، ولكن خلفه حكام ضعاف كان للعثمانيين - في الغالب - الغلبة عليهم حتى آخر عهد الصفويين (١).

---

(١) في تفاصيل النزاع العثماني الصفوى انظر : محمد عبد اللطيف هريدى : الحروب العثمانية الفارسية وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوربا ، دار الصحوة ، الطبعة الأولى (١٤٠٨ هـ / ١٩٧٨م) .
percy sykes : A history of persia , London , 1930 . vo1 , 2

الفصل الثانى

بلاد القوقاز من الفتح الإسلامى

حتى قيام العثمانيين

بلاد القوقاز
من الفتح الإسلامى حتى قيام العثمانيين

النطاق الجغرافى لبلاد القوقاز :

يطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون على إقليم القوقاز اسم «بلاد القفقاس» و«القبجاق» و «بلاد القبوق» وقد ظهر هذا الاسم منذ أيام اليونان على عهد هيرودوت أبى التاريخ ، وذلك للدلالة على سلسلة الجبال الشامخة التى تسير على امتداد ستمائة وخمسين ميلا بين البحر الأسود وبحر قزوين من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، وتعتبر هذه المرتفعات العظمى وخط تقسيم المياه بها الحد الفاصل بين قارتى آسيا وأوربا .

وتقسم السلسلة الجبلية إقليم القوقاز إلى منطقتين جغرافيتين هما : القوقاز الشمالى ، ويقع ضمن قارة أوربا ، والقوقاز الجنوبى ويقع فى أقصى الغرب من قارة آسيا ، ويضم هذان القسمان شعوبا وأجناسا عديدة جعلت من بلاد القوقاز متحفا للأجناس واللغات ؛ ذلك أن إقليم القوقاز كان ممرا رئيسيا عبر العصور للتبادل البشرى والاقتصادى والحضارى بين آسيا وأوربا ، فضلا عما صاحب هذا التبادل أحيانا من صراعات بين القوى العظمى التى حفلت بها هاتان القارتان .

ويسكن إقليم شمال القوقاز الشعوب الآتية :

أولا : الشراكسة :

وهم ينزلون فى الشمال الغربى والأوسط من القوقاز الشمالى ، وينقسمون إلى القوميات التالية :

١ ـ الأديجية (الأديغية) ، وهم الاسم القومى للشراكسة .

٢ ـ القبارطاى .

٣ ـ الأباظة .

٤ ـ القرتشاى .

٥ ـ البلكار .

ثانيا : الشيشان : ينزلون فى وسط القوقاز الشمالى الشرقى .

ثالثا : الأنجوش : ينزلون فى وسط القوقاز الشمالى :

رابعا : الأوسيتيين : ينزلون فى وسط القوقاز الشمالى .

خامسا : الداغستان : ينزلون فى أقصى الشمال الشرقى لشمال القوقاز .

بينما يشتمل إقليم جنوب القوقاز على الشعوب التالية :

أولا : الكرج (الجورجيون) : وهم سكان كرجستان (جورجيا) ، وينزلون فى وسط القوقاز الجنوبى .

ثانيا : الأذربيجان : وينزلون فى الشمال الشرقى للقوقاز .

ثالثا : الأرمن : وينزلون فى الجنوب الغربى للقوقاز .

رابعا : الأدجار : وهم سكان أدجاريا ، تقع جنوب غرب جورجيا (١) .

دخول الإسلام إلى منطقة القوقاز :

انتشر الإسلام فى بلاد القوقاز خلال مرحلتين :

أولاهما : خلال فترة فتوح صدر الإسلام التى وصلت حتى داغستان ، وقد دخلتها جيوش الفتح عام (٢٢هـ) فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ثانيهما: فى عصر الخلافة العثمانية ، حيث بلغت دعوة الإسلام الجهات الغربية الوسطى من المنطقة خلال القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى.

فقد أخذت شمس الإسلام تشرق على إقليم القوقاز منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وذلك حين قام المسلمون فى عهده بالفتوحات الإسلامية الكبرى خارج شبه جزيرة العرب لنشر الإسلام وتوسعة دياره ؛ إذ بعث واليه على الكوفة المغيرة

---

(١) د . إبراهيم أحمد العدوى : المسلمون فى القوقاز ، سلسلة دراسات إسلامية صادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عدد (١٢) (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ، ص ٩ ، ١٢ ، ١٤، المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز إعداد : مصطفى دسوقى كسبة ، هدية مجلة الأزهر عن ملفات مؤتمر بالعنوان نفسه عقد بجامعة الأزهر ، جمادى الآخرة سنة (١٤١٤هـ) ، الفصل الأول بعنوان : «جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية سكانيا وجغرافيا» .

ابن شعبة سنة (١٨هـ) الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان إلى أذربيجان بشمال فارس ، وهى المنطقة التى يدخل القسم الشمالى منها المعروف بأران ـ وهى حاليا جمهورية أذربيجان المستقلة عن الاتحاد السوفيتى السابق ـ فى النطاق الجغرافى لإقليم القوقاز الجنوبى ، وقد فتح القائد حذيفة بن اليمان مدينة أردبيل ، عاصمة أذربيجان فى تلك الآونة ، والتى غدت مركزاً لنشر الإسلام فى بلاد القوقاز ، وقاعدة لتعريف أهالى البلاد بتعاليم هذا الدين الحنيف وما يحمله للإنسانية من فكر رفيع وقواعد سامية فى ميدان المعاملات . ذلك أن حذيفة رضي الله عنه بادر بتلبية مطالب حاكم أردبيل بعقد صلح يكفل لبلاده الأمن فى ظل الحكم الإسلامى ، وقد تأكد هذا الأمن على عهد خليفة حذيفة بن اليمان وهو عتبة بن فرقد السلمى الذى عهد إليه الخليفة عمر بن الخطاب بالولاية على أذربيجان .

منح الوالى المسلم الجديد أهالى أذربيجان أمانا جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان ... الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ليس على صبى ولا امرأة ولا زمن ليس فى يدية شىء من الدنيا ، ولا متعبد متخل ليس فى يديه من الدنيا شىء ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، عليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوما وليلة ودلالته ، ومن حشر منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك . ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه ، وكتب فى سنة ثمانى عشرة » (١) .

وقد صاحب عهد الأمان الإسلامى لأذربيجان ما اشتهر به الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من إقرار للعدل ، وحرص على دعم المساواة بين المسلمين كافة ، ذلك أن عتبة بن فرقد السلمى أرسل إلى الخليفة سفطين من خبيص ، وهو طعام

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ٤/ ١٥٤ ، ١٥٥ ، وفى النص : المقصود بمن حشر منهم هو الذى يستعين به المسلمون فى عمل سواء فى الجيش أم غيره فإنه يعفى من الجزية . انظر : د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، دراسة سياسية ، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٣٧٥هامش(٢٢) .

لذيذ من طعام أهل أذربيجان ، فلما ذاقه عمر قال : إن هذا لطيب ، هل أكل كل المسلمين منه شبعة. فقال رسول عتبة: لا يا أمير المؤمنين ،إنما هو شيء خصك به . فكتب إليه عمر يقول: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد ،أما بعد ، فإنه ليس من كدك ولا كد أمك ولا كد أبيك إلا ما يشبع منه المسلمون فى حالهم.

وصارت بلاد القوقاز بذلك قاب قوسين أو أدنى من عدالة الإسلام وشمسه المشرقة بالأمن والأمان ، خصوصا فى تلك العصور المبكرة الطيبة المشرقة . فقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب سنة (٢٢هـ/ ٦٤٢م) قائده سراقة بن عمرو (ذا النور) بفتح إقليم الداغستان شمال أذربيجان فى شمال شرقى القوقاز . وأعد سراقة جيشا كبيرا جعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وهو صحابى ، وعلى المجنبتين حذيفة بن أسيد الغفارى وبكير بن عبد الله الليثى .

خرج سراقة بهذا الجيش قاصدا عاصمة الداغستان وهى مدينة «دربند» (١) . التى كان يطلق عليها لموقعها الإستراتيجى من جبال القوقاز اسم «باب الأبواب». وبادر حاكم هذه المدينة إلى طلب الصلح مع القائد المسلم على نحو ما قام به من قبل حاكم أردبيل ، وقال لسراقة : أنا معكم ويدى معكم والنصر لكم . وصار ترحيب أهل القوقاز بالإسلام سمة واضحة منذ الأيام الأولى لدخول الإسلام بلادهم وانضمامهم إلى دار الإسلام ، وهى فى المراحل الأولى من تكوينها ، وجعل سراقة عاصمته مدينة تفليس عاصمة جورجيا الحالية (٢) .

امتدت الفتوح الإسلامية إلى باقى بلاد القوقاز فى العام التالى لفتح الداغستان. فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب جيوشه لأرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا) ، وسار الجيش المسلم من أذربيجان فى أربع فرق عليها القائدان حبيب بن مسلمة وسلمان بن ربيعة . وقد استمرت العمليات الحربية فى تلك الجهات من بلاد

(١) اسم قلعة بجوار بحر الخزر فى القفقاز . د. شتا : المعجم الفارسى الكبير مجلد (١) .

(٢) الطبرى : تاريخه ١/ ١٥٣ وما بعدها ، د. العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ١٣ ـ ١٨ ، المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز ١ / ٦٠، ٦١،وانظر أيضا : د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، الجزء الأول النهضة المصرية ، الطبعة (١٣) ، سنة ١٩٨٩م ، ص ٦١٩، ود . هاشم عبد الراضى قاضايا ومواقف من تاريخ الخلفاء الراشدين ، دار النصر للتوزيع ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ص ٢٨٠ .

القوقاز حتى سنة(٢٤هـ) أى إلى خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وقد استطاع حبيب بن مسلمة الاستيلاء على بلاد أرمينيا وجورجيا .

وكان أهالى تلك الجهات من بلاد القوقاز تابعين لإمبراطورية الروم البيزنطيين، ويعانون من الاضطهاد الدينى الذى أنزله بهم سادتهم البيزنطيون ، إذ كان أهالى القوقاز يدينون بالمذهب المونوفيزيتى القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح ، على حين كان البيزنطيون من أتباع المذهب الملكانى القائل بأن للمسيح ﷺ طبيعتين ، بشرية وإلهية . ومن ثم رحب أولئك القوقازيون بالمسلمين ، إذ وجدوا فيهم المحررين لهم من ويلات الاضطهاد الدينى الذى حل بهم ، كما وجدوا فى عدالة الإسلام وسمو تعاليمه أسباب العيش الكريم ، فقد سمح المسلمون للقوقازيين بمتابعة شعائرهم الدينية بحرية ، والاشتراك فى إدارة شؤون بلادهم [١] .

القوقاز زمن الأمويين :

وازدادت دعائم الإسلام قوة ببلاد القوقاز منذ ذلك الوقت المبكر من القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى ، ذلك أن الدولة الإسلامية وجهت عنايتها إلى تلك النواحى ، حيث أدركت أنها تمثل وحدة جغرافية لها تقاليدها وخصوصيتها ، فجمعت السلطات الإسلامية منذ عصر الخلافة الأموية بين أران وأرمينيا وبلاد الكرج فى إدارة واحدة ترعى شؤونها ، وعلى قاعدة إشراك أهالى البلاد فى إدارة شؤونها ومتطلباتها .

وقد ارتبط مصير أرمينيا منذئذ بتاريخ الدولة الإسلامية وتأثرت بما سادها أحيانا من فترات اضطراب ، وتجلى ذلك بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وانغماس المسلمين فى الحروب الأهلية التى نشبت بين على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ﷺ إذ اضطر معاوية إلى سحب قواته المرابطة فى أرمينيا ليقوى

---

(١) حول هذا الموضوع انظر : مبحث «الوضع الدينى فى البلاد المفتوحة » ضمن الفصل الرابع من كتاب : العالم الإسلامى فى العصر الأموى للدكتور : عبد الشافى عبد اللطيف ، وانظر أيضا : مبحث « الاختلافات المذهبية فى أقاليم دولة الروم » ضمن الفصل الثانى من كتاب : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم للدكتور : إبراهيم أحمد العدوى ، دار رياض الصالحين ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، وهو الكتاب الأول من سلسلة الإسلام والبحر المتوسط .

جبهته في الصراع مع علي بن أبي طالب .

وجاء خلو أرمينيا من القوات الإسلامية فرصة مواتية للبيزنطيين لاسترداد هذا الإقليم ذي الموقع الحربي المهم ، فعادت جيوش الإمبراطورية البيزنطية إليه مصطحبة معها سياسة البيزنطيين التقليدية في العداء المذهبي ، على أن المسلمين لم يفرطوا فيه ولم يتركوه لقمة سائغة للروم ، إذ حين التأم الشمل ، واجتمعت كلمة المسلمين على معاوية خليفة لهم سنة (٤١هـ/ ٦٦١م) وجه همه لاستعادة أرمينيا، ساعده على ذلك سوء الأحوال فيها ، وانتشار روح التذمر والتمرد على السيادة البيزنطية . فأرسل معاوية إلى أهالي أرمينيا يدعوهم إلى الاعتراف بسلطانه والدخول في التبعية للمسلمين ودفع الجزية مقابل حمايتهم وطرد البيزنطيين ، وقد تحققت أغراضه واستردت قواته الإقليم .

وضع الخليفة الأموي بعد ذلك سياسة لحكم أرمينيا كفلت للمسلمين البقاء فيها طوال العصر الأموي ، إذ عهد بإدارة شؤونها المحلية إلى أقوى الأسرات الحاكمة بها ، ونصب على أرمينيا بأسرهم واليا مسلما يرقب أحوالها ويدير شؤونها عن طريق الحكام المحليين ، وقد حققت هذه السياسة هدوء الأوضاع واستقرارها بالبلاد طوال العصر الأموي ، وهدأت الأوضاع في هذا الركن المهم من ديار الإسلام المتاخم للدولة البيزنطية (١) .

القوقاز زمن العباسيين :

تابعت الدولة العباسية السياسة نفسها تجاه أهالي القوقاز . من ذلك ما قام به الخليفة المتوكل العباسي حين نصب أحد أمراء أرمينيا وهو أشوط البكراطي حكم تلك البلاد سنة (٢٤٧هـ) ، وقد كفل ذلك محبة أهالي القوقاز للإسلام ، والإقبال على اعتناقه ، ضرب الخلفاء العباسيون الأمثلة العملية لأهالي القوقاز على احترام حريتهم وتأمينهم ضد أي عدوان يقع عليهم ، حتى لو كان من جانب عمال الدولة الإسلامية نفسها ، ومن ذلك أن الخليفة العباسي المعتمد وقف إلى

(١) د . إبراهيم العدوى: الأمويون والبيزنطيون ، دار رياض الصالحين ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ، وهو الكتاب الثاني في سلسلة الإسلام والبحر المتوسط ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ، المسلمون في القوقاز ص ١٩ ، ٢٠ .

جانب أمير أرمينيا البكراطى ضد عدوان الوالى يوسف بن أبى الساج الشيبانى[1] .

وغدت بلاد القوقاز منذ أواخر العصر العباسى ، على صلة وثيقة بأحداث دار الإسلام،وتستمد من تلك الأحداث ما يقوى دعائم هذا الدين الحنيف بين أهاليها، وتمثلت تلك الأحداث فى ظهور الأتراك السلاجقة والمغول ، ثم قيام الدولتين الصفوية والعثمانية ، وأخيرا نشاط الفرق الصوفية ، وتجلى تأثير تلك القوى الإسلامية المتتالية على بلاد القوقاز فيما يلى :

١ ـ الأتراك السلاجقة :

الذين ظهروا على مسرح الأحداث فى الدولة العباسية مع أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ودخلوا العراق وسيطروا على شؤون الخلافة العباسية فى بغداد .

كان أولئك السلاجقة من المتحمسين لإحياء الجهاد الإسلامى ضد دولة الروم البيزنطيين التى دأبت على العدوان على دار الإسلام ؛ إذ امتدت إغارات الروم البيزنطيين إلى العديد من أقاليم الثغور الإسلامية ، ومن بينها بلاد الشام والعراق وأرمينيا من بلاد القوقاز ، وجاء ظهور هؤلاء السلاجقة فى ذلك الوقت عاملا مهما فى الدفع عن دار الإسلام . فقد دأبت السلطات البيزنطية على تشجيع بعض أمراء بلاد القوقاز القريبة من أراضيها ، وبخاصة فى أرمينيا ، على الخروج عن طاعة المسلمين ، وذلك أملا فى الاستيلاء على بعض مناطق القوقاز ، وقد تمكن السلاجقة من التصدى لدولة الروم البيزنطيين ، حيث أنزل السلطان السلجوقى ألب أرسلان هزيمة فادحة بإمبراطور الروم رومانوس وقواته فى موقعة ملاذكرد الحاكمة بأعالى بلاد الجزيرة الفراتية سنة (٤٦٣هـ) . فقد كان السلطان السلجوقى قد وصل فى تحركاته العسكرية إلى مدينة « خوى » [2] بأذربيجان فبلغه خروج

---

(١) حول الساجيين ونشاطاتهم انظر : ابن الأثير :الكامل فى التاريخ ، تصحيح د . محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، حوليات سنوات عديدة فى تلك الفترة .

(٢) انظر فى تاريخها : مهدى آقاسى : تاريخ خوى ، انتشارات مؤسسة تاريخ وفرهنك ، إيران شماره ١ سلسلة تاريخ وباتسان شناى .

رومانوس إمبراطور الروم فى مائتى ألف من الروم والفرنج والكرج والروس وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، وأنه وصل إلى خلاط ببلاد الجزيرة الفراتية ، لم يتمكن السلطان من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو ، فسير أثقاله مع وزيره نظام الملك الطوسى إلى همدان ، وسار هو فيمن معه من العسكر ، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجد فى السير ، وسير أمامه مقدمة فالتقت بمقدمة العدو فهزمتها وأسرت مقدمها وحمل إلى السلطان فجدع أنفه ، وأرسل الإمبراطور يطلب المهادنة فأجاب : لا هدنة إلا بالرى [1] ، حاضرة السلاجقة فى ذلك الوقت .

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ركب السلطان وقال لأصحابه : من أراد الانصراف فلينصرف ، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى ، وبكى وأبكى ورمى القوس والنشاب ، وأخذ السيف ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط ، وقال : إن قتلت لهذا كفنى ، وزحف إلى الروم وزحفوا له ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه فى التراب وبكى وأكثر من الدعاء ، ثم ركب وحمل . فمنح الله النصر للمسلمين فقتلوا من العدو ما لا يحصى كثرة ، وأسر الإمبراطور رومانوس ،أسره غلام وأراد قتله ، فلم يكن يعرفه ، فقال له خدم مع الإمبراطور : هذا الملك لا تقتله فأحضر الأسر إلى السلطان فضربه ثلاث ضربات بالمقرعة ، وقال : ألم أرسل إليك فى الهدنة ، فأبيت؟ قال : دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ فقال : كنت أفعل كل قبيح . فقال : فما تظن أنى أفعل معك ؟ فقال : إما أن تقتلى ، وإما أن تشهرنى فى البلاد ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى باتباعك . فرد السلطان : ما عزمت على غير هذا ،ففدى نفسه بمبلغ كبير من المال وجزية تؤدى كل عام ، وإطلاق كل أسير فى بلاد الروم من المسلمين ، وأن ينفذ إليه عساكر الروم متى طلبها ، واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله السلطان فى خيمة ، وأطلق له جماعة من البطارقة من الأسر ، وخلع عليه ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، وقام ملك الروم إلى جهة الخليفة وكشف رأسه

(١) عاصمة العراق العجمى وإحدى المدن الزاهرة فى تاريخ الحضارة الإسلامية د . شتا : المعجم الفارسى الكبير مجلد ١ .

وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، ثم جهز السلطان معه عسكرا يوصله إلى مأمنه وشيعه فرسخا (١) .

وأما الروم فحين بلغهم خبر الواقعة وثب أحدهم - واسمه ميخائيل - على المملكة وملك البلاد ، فبلغ رومانوس الخبر وهو فى طريقه ، فلبس الصوف وأظهر الزهد ، وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما استقر بينه وبين السلطان ، فأبى القبول ، فجمع رومانوس أمواله وذخائره وجواهره وأرسلها إلى السلطان وحلف أنه لا يقدر على غيرها . ثم مضى بمن معه إلى بلاد الأرمن فملكها وقتل ملكها وأرسل رأسه إلى بغداد ودعا للسلطان بها (٢) .

وعلى أثر هذه الموقعة المصيرية انفتح الطريق أمام السلاجقة نحو آسيا الصغرى (حيث تأسست هناك دولة سلاجقة الروم فيما بعد) وكذلك نحو بلاد القوقاز فبسطوا نفوذهم على أران وجورجيا وأرمينيا ، وأخذ الإسلام ينتشر بقوة بين شعوب القوقاز نتيجة حماسة السلاجقة لهذا الدين وغيرتهم عليه وعلى أهله ، وتجلى ذلك فى امتداد الإسلام إلى المناطق الجبلية من الداغستان وبخاصة فى وسط وشمال تلك البلاد (٣) .

٢ - المغول :

لقيت بلاد القوقاز دفعة قوية من حيث انتشار الإسلام بها حين ظهر المغول

---

(١) الفرسخ = ٣ أميال ، والميل = ١٨٤٨ مترا ، إذن الفرسخ =١٨٤٨ × ٣ = ٥٥٤٤ مترا .
انظر : د . محمد ضياء الدين الريس:الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ،دار الأنصار ، ط٤ ، سنة ١٩٧٧م ص ٣٠١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء السادس والعشرون ، تحقيق : محمد فوزى العنتيل ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ص ٣١٣ - ٣١٥ .

(٣) حول جهود السلاجقة فى هذا الميدان انظر : خواندمير : حبيب السير فى أخبار أفراد بشر ازانتشارات كتابخانه خيام ١٩٥٤ ، د . محمد جواد مشكور : تاريخ تبريز تاباپان قرن نهم هجرى سلسلة انتشارات انجمن آثار ملىء ٩ تيرماه ١٣٥٢ هـ ، د . أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة دار البحوث العلمية الكويت الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥م ، جمال فوزى محمد : الأحوال الحضارية فى إيران من سنة ٤٨٥ هـ إلى سنة ٦٢٨ هـ . رسالة دكتوراه بدار العلوم سنة ١٩٩٧م .
The cambridge history of 1 Ran, vol 5 (the saljuq and mongol periods 1968

على مسرح الأحداث فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وكانت دولتهم قد تأسست على يد جنكيزخان (٥٥٥ هـ - ٦٢٤ هـ) ومعه أولاده الأربعة المشهورون : جوجي وجغتاى وأوكتاى وتولوى ، والذين بعث بهم إلى شتى الجهات حتى صارت دولتهم تمتد من القوقاز غربا إلى الصين شرقا (١) .

وفيما عدا الأسرة التى حكمت فى موطن المغول الأصلى فى منغوليا وشمال الصين ، والتى دانت بالبوذية ، فإن الفروع الثلاثة الأخرى التى انقسمت إليها إمبراطورية المغول الكبرى الجنكيزخانية قد هداها الله للدخول فى الإسلام وانقلبت مدافعة عنه حامية لدياره بعد عدواة مريرة ، وهذه الفروع هى : أسرة جغتاى ببلاد ما وراء النهر ، وأسرة هولاكو بن تولوى (الإيلخانات) بإيران والعراق وبلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وأسرة جوجى فى القوقاز وهى مناط حديثنا هنا (٢) .

كان جوجى بن جنكيزخان صاحب الفضل فى ضم بلاد القوقاز إلى إمبراطورية المغول ؛ حيث نزلت بها قواته من العشائر المغولية ، التى صار يطلق عليها اسم مغول القبجاق واشتهرت تلك الدولة من دول المغول باسم القبيلة الذهبية بالنظر إلى لون خيامهم الأصفر ،وقد انتشرت سيطرتها من موسكو إلى فرغانة بتركستان مرورا بجبال القوقاز وسهول نهر الفولجا وجبال آورال وكازاخستان وشواطئ البحر الأسود ، ومصب نهر الدانوب .

توفى جوجى فى حياة أبيه ، ولم يلبث المغول أن أخذوا يتحولون فى هذه

---

(١) انظر فى ذلك : رشيد الدين : جامع التواريخ بسعى واهتمام أحمد آتش ازانتشارات انجمن تاريخ ترك أنقرة ، ١٩٦٠م ، جمال فوزى محمد : أوضاع غير المسلمين بإيران والعراق فى عهد الإيلخان أرغون ، بحث منشور ضمن ملف ندوة : الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى ٣٠ نوفمبر -١ ديسمبر ١٩٩٨م بكلية الآثار جامعة القاهرة .

Henery Howorth : H. History of the mongolr, London. 1876.

(٢) انظر : رشيد الدين : جامع التواريخ ، إدوارد مايك : أبناء جنكيز خان الخانات العظام ، بحث بمجلة الثقافة العالمية العدد ، (٨٣) يوليو - أغسطس ١٩٩٧م ، ترجمة : أحمد خضر ، د .فؤاد الصياد : الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين ،منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، قطر ، ١٩٨٧م .

Mongal, published in the encyclopedia britannica vol. 15, 1970.

الدولة إلى الإسلام ؛ حيث تولى بعد فترة ابنه بركة خان سنة(٦٤٥هـ/ ١٢٥٦م) حكم القبيلة الذهبية ،وقد اعتنق هذا الخان الإسلام ، إذ كان والده قد عهد بتربيته إلى أحد علماء المسلمين مما جعله يشب على الورع والتقوى والتمسك بالدين الإسلامى ، مع الحرص على دعوة بنى جلدته إلى اعتناقه على امتداد فترة حكمه التى انتهت سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٦٦م)، وغدت عاصمة هذه الدولة والمدن الكبرى بها مراكز إشعاع وجذب أيضا للإسلام فى بلاد القوقاز (١) .

وحين زار الرحالة المغربى ابن بطوطة خانية مغول القبجاق كان يحكمها السلطان محمد أوزبك (٧١٢ ـ٧٣١هـ/ ١٣١٢ ـ ١٣٤٠م) ، وقد استقبله أحد عمال هذا السلطان بالترحاب واصطحبه معه إلى زيارة السلطان فى عاصمته على نهر الفولجا ، وخلال هذه الصحبة وتلك الرحلة شاهد الرحالة المسلم عن كثب مظاهر قوة الإسلام ببلاد القوقاز ، حتى قال عن السلطان أوزبك : «والسلطان اسمه محمد أوزبك خان ، ومعنى خان عندهم : السلطان ، وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان ، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى ، مجتهد فى جهادهم . وبلاده متسعة ومدنه عظيمة ، وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها ، وهم مولانا أمير المؤمنين ـ يقصد سلطان بلاد المغرب ، وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين » (٢) .

وقد ربط إسلام أوزبك خان بلاد القوقاز بالجهود التى كانت تبذلها دولة المماليك فى مصر والشام ، إذ ذاك ضد إيلخانات إيران الذين لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد . فقد سعى بركة خان سلف أوزبك إلى التنسيق مع سلطان المماليك فى مصر ركن الدين بيبرس فى حربه ضد هولاكو ابن عم محمد أوزبك نفسه

---

(١) د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٤٨٦/٢ ، وما بعدها ، د. إبراهيم العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، شرحها وكتب هوامشها : طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٣٤٥ .

وبركة (١) . وأظهرت هذه الكتب والمراسلات بينهما ، والتى يقول لبيبرس فى إحداها : «فليعلم السلطان أنى حاربت هولاكو الذى هو من دمي ولحمى لإعلاء حكمة الله متعصبا لدين الإسلام » ويقول فى أخرى : « أنت تعلم أنى محب لهذا الدين ،وأن هذا العدو - يقصد هولاكو - كافر ، وقد تعدى على قتل المسلمين واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده أنت من جهتك ، وأقصده أنا من جهتى ونصدمه بيد واحدة ونزيحه عن البلاد ، وأنا أعطيك ما فى يده من بلاد الإسلام » .

وقد شجع بيبرس بركة خان على نصرة الإسلام ، وذلك بأن خطب له على منابر البلاد التابعة لسلطان المماليك فى مصر والشام والحرمين بالحجاز ، وأرسل له الهدايا الثمينة ، وقد قوبل رسله بالحفاوة البالغة في بلاط بركة خان ، وحكوا عند عودتهم لمصر أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المكاتب .

وهكذا لم تكن العلاقة بين الظاهر بيبرس فى مصر وبركة خان ملك مغول القبجان مجرد علاقة شخصية بين رجلين ، وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية ، وأحستا بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس ، وهكذا لم تؤد وفاة بركة سنة (١٢٦٧م) إلى انقطاع صلات الود بين الدولتين ؛ إذ تبودلت السفارات بين بيبرس وخليفة بركة خان يقصد توحيد القوى ضد مغول فارس .

واستمرت هذه السياسة قائمة بعد بيبرس ، فقد أراد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون أن يدعم الصلات بين دولتى المماليك والقبجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أوزبك خان . بل لقد أرسل سفارة سنة (١٣١٦م) إلى أوزبك خان طالبا الزواج من إحدى الأميرات فى أسرته وذلك توثيقا لصلات الود ، فتمنع أوزبك خان ثم عاد ، فوافق على تلبية رغبة الناصر ، وفى سنة (١٣٢٠م)

(١) انظر تفاصيل هذا الصراع فى : د . فؤاد الصياد : الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين .

وصلت الأميرة التترية إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك فى مصر ودولة مغول القبجاق ، واستمرت المراسلات بين خلفاء أوزبك خان والسلطان الناصر . على أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك ودخول حكامها فى الإسلام قلل من إحساس الطرفين بالخطر المشترك . هذا بالإضافة إلى أن دولة القبيلة الذهبية نفسها أخذت فى الضعف ، فى الوقت الذى شغلت فيه سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها بمغول القبجاق (١) .

وقد صار عهد أوزبك خان نقطة تحول مهمة فى انتشار الإسلام فى بلاد القوقاز ، ذلك أن قبائل النوغاى التى كانت تسكن السهول والبوادى فى شبه جزيرة القرم ـ شمال البحر الأسود ـ إلى نهر الفولجا ، قد تولت التعريف بالإسلام لشعوب شمالى القوقاز ومن بينها : الشيشان ، والقبارطاى ، وشراكسة البحر الأسود ، وظلت المراكز الثقافية فى المدن المهمة بدول القبجاق ، ومنها قازان وأستراخان ينابيع تمد بلاد القوقاز بما يكفل لها دوام الصلة بالإسلام ، وكانت مناطق نفوذ قازان قريبة بصفة خاصة من موسكو التى كان حكامها الروس يعينون من قبل الرئاسة الإسلامية العليا فى قازان نفسها (٢) .

وقد نجح أوزبك خان ، على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة فى جذب كثيرين ،وتحويلهم إلى الإسلام الذى كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة ، وإليه يرجع الفضل فى توطيد دعائمه وتثبيت أركانه فى البلاد التى كانت تحت سلطانه ومما يدل على مبلغ جهوده هذه ما نجده فى القبائل الأوزبكية فى أواسط آسيا ، التى اشتقت اسمها من اسمه والتى لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام فى عهده ، ويقال : إنه وضع خطة لنشر الإسلام فى أرجاء البلاد الروسية .

---

(١) د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢ .

(٢) د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٣١ ، ٣٢ .

وعلى الرغم مما أظهره أوزبك خان من التحمس فى نشر الإسلام وتفانيه فى الإخلاص له ، فقد كان كثير التسامح نحو رعاياه من النصارى ، فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء ، وذهب فى تسامحه إلى أبعد من هذا ، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره فى بلاده، ومن أهم الوثائق التى تسترعى الانتباه عن التسامح الإسلامى ، ذلك العهد الذى منحه أوزبك خان للمطران بطرس سنة (١٣١٣م) ، وقد جاء فيه :

«بمشيئة العلى القدير وعظمته ورحمته ، من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم . إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها ، أو قسيسيها بسوء ، ولا أن يستولى على شىء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها ، ولا أن يتدخل فى أمورها ؛ لأنها مقدسة كلها ، ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل ، ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة ، ولندعه ـ أو وكيله ـ يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم . وإننا نعلن فى حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاة أقاليمنا لن نتدخل بأى حال فى شؤون الكنيسة ولا شؤون المطران ، ولا فى شؤون المدن والمراكز والقرى والأراضى المخصصة للصيد فى البر والبحر ، ولا فى الأراضى والمراعى والصحارى ، ولا فى المدن والأماكن الداخلة فى أملاكها الخاصة ، ولا فى الكروم والطواحين ، ولا فى مراعى الشتاء ، ولا فى أى شىء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها .

ولندع بال المطران فى راحة دائمة خاليا من كل تعب أو نصب ، ولندع قلبه سليما قويما ، ولندعه يصلى لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا ، حتى إذا وضع يده على شىء مقدس ، ثبت عليه التهمة وباء بغضب من الله ، وكان جزاؤه القتل . حتى يلقى مصيره الرعب والفزع فى قلوب الآخرين وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب ، كالرسوم الجمركية والمكوس وضرائب الطرق والأراضى غير المزروعة ، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا فلا يجمع شىء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس أو لأى أحد من رجال الدين

التابعين له .

وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه ، يرد إليهم أضعافا ثلاثة ، ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم ، وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين ، فلن يقبل منه أى عذر ولا أن يطلب العفو ، بل يكون جزاؤه القتل ، وسوف يتمتع أخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفى دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق » [1] .

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد حبر على ورق ، وأن التسامح الذى وعد به هؤلاء النصارى قد أصبح حقيقة واقعة من هذه الرسالة التى بعث بها البابا يوحنا الثانى والنصارى سنة (١٣١٨م) إلى الخان ، يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه النصارى ، ويثنى على هذه المعاملة الطيبة التى كان أوزبك يعاملهم بها [2] .

ويظهر أن خلفاء أوزبك خان لم تدفعهم الرغبة نفسها التى أظهرها هو فى نشر الإسلام بين الروس الذين كانوا إذا أدوا الضرائب المعروضة عليهم ، تركت لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية كيف شاؤوا . وقد بلغ من تغلغل النصرانية فى حياة الشعب الروسى أنه لم يعد هناك ما يعكر صفو هذه الحياة رغم الجهود المبذولة لتحويلهم عن دين آبائهم ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن النصرانية كانت الديانة القومية للشعب الروسى قرابة ثلاثة قرون ، قبل أن يوطد المغول سلطانهم فى الأراضى الروسية [3] .

وأخذت أركان العقيدة الإسلامية تتدعم وتقوى فى بلاد القوقاز حين ظهر أحد كبار الفاتحين المسلمين فى القرن الثامن الهجرى /الرابع عشر الميلادى ، وهو المشهور باسم تيمورلنك المولود فى سمرقند سنة (٧٦٥هـ / ١٣٣٦م) من أب تركى وأم تنتسب إلى سلالة جنكيزخان،وقد أسس تيمورلنك إمبراطورية ضخمة ،

---

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية ط٣ ، سنة ١٩٧٠م ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

(٢ ، ٣) المرجع السابق ص ٢٧٣ .

جعل قاعدتها سمرقند ، وامتدت من الصين إلى بلاد القوقاز ، فقدم ضم إلى مملكته الشاسعة كلا من أذربيجان والداغستان فيما بين (١٣٨٥ ـ ١٣٩٥م) وتولى فى حماسة عالية تحويل سكان القوقاز إلى الإسلام ، فاعتنق الإسلام شعب اللان فى وسط القوقاز ، وهم أجداد الأوستيين الذين يعيشون اليوم فى أوستيا الشمالية والجنوبية . كما تبعتهم شعوب الداغستان (١) .

(١) فامبرى : تاريخ بخارى ص ٢٠٥ ـ ٢٥٩ ، منروف : العرب والإسلام فى أوزبكستان ص ١٨٩ وما بعدها ، د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٣٢ ، وانظر كذلك : أيرين فرانك ، ديفيد برونستون : طريق الحرير ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ١٩٩٧م ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢ .

الفصل الثالث

الإسلام فى بلاد القوقاز زمن العثمانيين

الإسلام فى بلاد القوقاز من العثمانيين

بلاد القوقاز فى مطلع العصر الحديث :

شهد القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى قيام ثلاث قوى إسلامية عظمى تولت متابعة نشر الإسلام فى بلاد القوقاز : الأولى : هى الدولة العثمانية التى تحكم آسيا الصغرى ، والثانية : هى خانية القرم التى قامت فى أعقاب تفكك عرى القبيلة الذهبية فى القرن الخامس عشر ، وشغلت مساحة واسعة امتدت من مولدافيا حتى القوقاز ، والثالثة : هى الدولة الصفوية الحاكمة بإيران .

وقد تولت كل من الدولة العثمانية وخانية القرم نشر الإسلام بين سكان القوقاز الشمالى فى أبخاريا وكذلك بين الشراكسة ، على حين تولت الدولة الصفوية نشر الإسلام فى القوقاز الجنوبى ، فقد استولت على دربند وخانية شروان سنة (١٥٣٨م) .

وقد صاحب نشاط هذه القوى الثلاث تعدد المذاهب الإسلامية فى بلاد القوقاز ، حيث ساد المذهب الشيعى فى أذربيجان ، وانتشر المذهب الشافعى فى منتصف القرن السادس عشر فى الداغستان ، وانتشر المذهب الحنفى فى غرب شمال القوقاز .

وامتد نشاط الدولة العثمانية وخانية القرم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى الأجزاء الشمالية الغربية والوسطى من شمال القوقاز ، حيث انتشر الإسلام بين شراكسة البحر الأسود ، وكذلك بين قبائل القرنشاى والبلقار والأباظة والأبخار ، وقام الأتراك العثمانيون سنة (١٦٢٧م) بغزو الأجزاء الجنوبية الغربية من جورجيا مما ترتب عليه اعتناق شعب أدجاريا الحالى للإسلام ، وتحويل عاصمتهم باطومى على البحر الأسود إلى مركز من المراكز الإسلامية المهمة ببلاد القوقاز .

كان المجتمع الإسلامى ببلاد القبجاق يمثل الحافة الشمالية لدار الإسلام ، ويقع بين قوتين ضخمتين كانتا عند زيارة ابن بطوطة للمنطقة فى طور التكوين وهما : قوة الأتراك العثمانيين التى ستتزايد مع الزمن حتى تسود شرق أوربا وبلاد القرم وجانبا من بلاد القوقاز ، والأخرى : هى قوة الصقالبة الروس التى ستتوسع مع الزمن الطويل حتى تشمل كل حوض الفولجا وشمال بحر الخزر - قزوين - وكل بلاد التركستان ، وهذه هى للأسف سابقا بلاد مغول القبجاق المسلمين التى زارها ابن بطوطة فى عهد خانهم القوى المتحمس للإسلام أوزبك خان [1] .

القوقاز بين العثمانيين والروس :

وهكذا بدت منطقة الشرق الإسلامى فى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، واتضحت الأسس التى حددت علاقات الدولة العثمانية بممالك آسيا الوسطى والقوقاز ؛ ولذا يمكن تقسيم هذه الممالك بحسب علاقتها بالعثمانيين إلى قسمين :

الأول : ممالك خضعت للنفوذ العثمانى المباشر ، أو تسعى الدولة العثمانية لإخضاعها وتخوض صراعا مريرا مع روسيا فى الشمال والصفويين فى الشرق لذلك ، وهى مناطق القرم وغربى القوقاز .

الثانى : ممالك لم تخضع للدولة العثمانية خضوعا سياسيا ، وإنما خضعت لنفوذها الدينى وتخوض مع الدولة صراعا مشتركا ضد الشيعة فى إيران والأطماع الروسية فى الشمال ، وهى ممالك بخارى وخوارزم وطشقند وشرقى القوقاز .

وقد مرت المنطقة بأحداث مهمة خلال هذه الفترة كان لها آثارها البعيدة المدى ونتائجها الواضحة وتأثيرها الكبير على علاقات الدولة العثمانية بممالك آسيا الوسطى والقوقاز ، فقد أدى تصاعد حركة الجهاد الإسلامى العثمانى فى شرق أوربا وسقوط بيزنطة ، وضم الدولة العثمانية للأملاك البيزنطية فى البحر الأسود،

---

(١) د . إبراهيم أحمد العدوى : المجتمعات الإسلامية ماضيها وحاضرها ، بدون ناشر أو تاريخ طبع ، ص ١١١ ، ١١٢ .

أدى لدخول النفوذ العثمانى بقوة إلى منطقة القرم والقوقاز ، وخوض صراع طويل بواسطة حليفها خان القرم على أملاك دولة مغول القبجاق ـ القبيلة الذهبية ـ المفككة ـ فى ذلك الوقت ـ مع إمارة موسكو الروسية ، انتهى بإلحاق الدولة العثمانية القرم تحت حمايتها وضم موسكو لقازان وأستراخان .

ومنذ ذلك الحين أصبح للدولة العثمانية نفوذ فى منطقة القرم وعلاقات وطيدة مع خاناتها (١) . وعلى الرغم من عدم وصول هذه العلاقة لدرجة التبعية التامة كولاية عثمانية ، إلا أن تعيين خان القرم كان يأتى من الأستانة (استانبول) رأسا ، بينما كانت شؤون القرم الداخلية تترك لخان القرم يديرها بنفسه دون الرجوع للدولة العثمانية . أما علاقات خان القرم الخارجية فكانت تتم بتوجيهات مباشرة من السلطان العثمانى سواء فيما يتعلق بدوره كوسيط بين السلطان العثمانى وممالك آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية أم بدوره الذى كان يقوم به فى صراع الدولة مع روسيا القيصرية ومع إمبراطورية النمسا فى أوربا .

إلا أن ضعف السياسة العثمانية واضطرابها على أثر وفاة السلطان سليمان القانونى ، وسعى السياسيين العثمانيين ، فيما بعد لمعاملة خان القرم معاملة ولاة الدولة ، ووصول بعض من لهم علاقات بروسيا إلى خانية القرم ، كل ذلك ساعد على تشكيل جبهة مناوئة للعثمانيين من عائلة كراى الحاكمة ببلاد القرم تعمل لمصلحتها الخاصة .

ولذلك فمع مطلع القرن الثامن عشرالميلادى / الثانى عشر الهجرى لم يعدم الروس الوسيلة التى يستطيعون بها السيطرة على القرم بواسطة بعض أفراد عائلة كراى الحاكمة ، ومن ناحية أخرى فقد كان لظهور إمارة موسكو كقوة فى منطقة شمال البحر الأسود ، وسعى أمير هذه الإمارة للحصول على لقب القيصرية من بابا روما ووراثة الإمبراطورية البيزنطية المتدهورة ، وحرص بابا روما على دفع

(١) تنتمى هذه الأسرة التى ورثت جزءا كبيرا من ممتلكات القبيلة الذهبية إلى توقاتيمور أصغر أبناء جوجى بن جنكيز خان ، وقد طالت مدة حكمها فى هذه المناطق (٨٢٣ ـ ١١٩٧هـ / ١٤٢٠ ـ ١٧٨٣م) .انظر حولها : د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢/ ١٦٠ ، وما بعدها .

روسيا القيصرية لحمل الراية الصليبية ضد العالم الإسلامى ، كان لهذا كله أثره العظيم فى توجه القيصر الروسى ببصره نحو الممالك الإسلامية فى الجنوب ، وبخاصة تلك التى كانت توشك على الانهيار كالقبيلة الذهبية .

ومنذ سقوط أملاك القبجاق فى قازان وأستراخان فى يد الروس ، لم تتوقف السياسة الروسية عن التخطيط لبسط نفوذها على الممالك الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز كبخارى وخوارزم والشيشان والداغستان .

وفى هذا السبيل قامت روسيا القيصرية بتوظيف كل إمكانيات العالم الصليبى بالتنسيق مع الدول الأوربية أو بدون التنسيق المباشر معها ، حتى تمكنت من قطع اتصالات ممالك آسيا الوسطى ببقية العالم الإسلامى ، وبخاصة الدولة العثمانية إثر احتلالها أستراخان ، فتعاونت فى ذلك مع الدولة الشيعية فى إيران ، وورطت الدولة العثمانية فى حروب خارجية بالتنسيق مع إمبراطورية النمسا . وفى الداخل شجعت على إشعال حركات العصيان فى البلقان وبعض المناطق الأخرى ، وذلك كله كى لا يتيسر للعثمانيين الالتفاف شمالاً لوقف زحفها المستميت على شمال ديار الإسلام فى آسيا الوسطى والقوقاز من الشرق إلى الغرب (١) .

وخلال فترة الصراع العثمانى الروسى على بلاد القوقاز ، عزز من انتشار الإسلام فى هذه المنطقة إقبال أهالى تلك البلاد على التصوف الذى كان ظاهرة سائدة فى العالم الإسلامى ، وما يتبع التصوف الحقيقى من زهد وتعبد وبعد عن المداهنة لذوى السلطان وجهاد بالنفس .

وقد سلك مسلمو القوقاز وقادتهم طريق التصوف على النمط العثمانى ، وهو النظام المعروف باسم الأخيات الصوفية ، فقد انفرد هذا النظام منذ نشأته بارتباطه بالقواعد الشعبية ، والعمل على تنظيم صفوفها ورعاية مصالحها ، ليس الدينية فحسب بل الاجتماعية كذلك ، حتى غدت الأخيات الصوفية تنظيماً اجتماعياً وسياسياً على جانب كبير من الأهمية ، يستهدف قضاء حوائج الناس ، والوقوف

---

(١) المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز ١ / ١١٩ ـ ١٢٢ .

فى وجه الظلمة ، أى حماية الناس من ظلم الحكم ، وذلك إلى جانب العناية بالغرباء .

وعلى هـذا النحـو من الترتيب الشعبى عميق الجذور الدينية دخل نظام «الأخيات الصوفية» إلى بلاد القوقاز ، وبخاصة فى الفترات التى تعرضوا فيها للاضطهاد ، وصارت بلاد القوقاز نموذجاً تحتذى به سائر البلاد الإسلامية المجاورة لهم فى اتباع نظام الأخيات الصوفية ، والتمسك بتعاليم تلك الأخيات باعتباره صمام الأمن لكيانهم ووجودهم .

وصاحب انتشار الأخيات الصوفية فى بلاد القوقاز الطرق الصوفية الأخرى المعروفة وبخاصة النقشبندية ، وكذلك الطريقة القادرية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد تأسست الطريقة النقشبندية على يد الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندى فى مدينة بخارى ، وقد ولد هذا الشيخ عام (٧١٨هـ / ١٣١٧م) وتوفى سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) بعد أن أعدَّ فى نظام دقيق كافة الوسائل لأتباعه لنشر الإسلام فى آسيا الوسطى والقوقاز .

وقد وصلت هذه الطريقة إلى الهند والصين ، كما امتدت إلى الشرق الأوسط، وهى الأمور التى أتاحت للمسلمين فى بلاد القوقاز الاتصال بسائر أقرانهم من المسلمين على امتداد رقعة دار الإسلام الشاسعة ، حيث جرى نشاط شيوخ الطريقة النقشبندية ، ومريديها على امتداد الأراضى الشاسعة من القوقاز فى جبال الداغستان والشيشان غرباً إلى بخارى وقرغيزيا إلى حدود الصين شرقاً.

وقد دخلت الطريقة النقشبندية خلال القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى إلى بلاد القوقاز على يد الشيخ منصور أشرمة ، ثم امتد نشاط هذه الفرقة إلى الشيشان أثناء إمامة الشيخ شامل فى الداغستان على يد أحد نوابه وهو الشيخ تاشوحجى سنة (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م) .

وقد اتسمت الطريقة النقشبندية بالاعتماد فى رياضتها الروحية على الذكر

الخافت ، مما جعل الروس يطلقون على أتباعها اسم « شيبتوتى » أى المتمتمين ، واشتهرت هذه الطريقة بالقدرة على استقطاب علماء الدين والمثقفين فى بلاد القوقاز ، وأتاحت لهم فرص الوصول إلى أعلى المراكز فى إدارة شؤون بلادهم .

أما الطريقة القادرية ، فقد دخلت بلاد القوقاز فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر على يد « كونتاحاجى كيشييف » الذى تلقى أصول الطريقة من تصوف وذكر على يد مؤسس الطريقة نفسه وهو الشيخ عبد القادر الجيلانى ببغداد، أثناء مروره بها فى طريقه إلى الحج بمكة المكرمة .

وتعتمد الطريقة القادرية فى ممارسة رياضتها الروحية على الذكر العلنى مما جعل الروس يطلقون على أتباعها اسم « ذيكر يستى » أى أصحاب الذكر العلنى . وقد اشتهرت بالقدرة على استقطاب الطبقات الشعبية وتعبئة صفوفها من أجل صالح المسلمين فى القوقاز وللدفاع عن كيانهم .

وقد تشعبت الطريقة القادرية فى .لاد القوقاز بعد وفاة مؤسسها كونتاحاجى إلى أربع شعب أو فروع ، يطلق على الواحد منها اسم ورد ، وكان لكل منها دورها المهم فى نشر وتدعيم أركان الإسلام فى القوقاز ، فقد حمل الورد الأول وهو المعروف باسم النظامى اســم كونتاحاجى ، وانتشر نشاطه فــى الشيشان والداغستان .

أما الورد الثانى فإنه عبارة عن طريقة « بطل حجى بلهورييف» التى اتخذت مركزها فى بلاد الإينغوش ثم امتد نشاطها إلى الشيشان والداغستان ، وقد أخذت من التعاليم الإسلامية والعمل على تطبيقها العملى أساسا لممارسة أعمالها ، كما اتسم أتباعها بالتمسك الشديد بالشريعة الإسلامية .

وظهر الورد الثالث المعروف بطريقة « بامات حجى » ، واتخذت مركزها فى بلاد الإينغوش .

وأخيرا قام الورد الرابع المعروف باسم طريقة « تشيم ميرزا » بالعمل فى منطقة شامى من بلاد الشيشان .

وبذلك تكون بلاد القوقاز قد وقفت منذ فجر الإسلام على التيارات المهمة التى حفلت بها دار الإسلام ، وهى تنمو منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكذلك على عهد الأمويين والعباسيين والسلاجقة والمغول والتيموريين وأخيرا على عهد الدولتين الصفوية والعثمانية فى مطالع العصر الحديث ، وذلك قبل أن يدهمها ويجتاحها النفوذ الروسى القيصرى ثم السوفيتى (١) .

القوقاز فى ظل النفوذ الروسى :

تعرضت بلاد القوقاز ـ على نحو ما تعرضت له دار الإسلام ـ منذ مطالع العصر الحديث إلى أطماع استعمارية شرسة ، حمل لواءها الروس الذين تمكنوا فى ذلك الوقت من جعل موسكو عاصمة لدولة لهم ، وقد شهدت هذه الدولة فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ظهور مجموعة من حكامها القياصرة الذين رسموا سياستهم على أساس التوسع الرهيب على حساب القوى الإسلامية المجاورة لهم فى كل من مناطق نهر الفولجا وبلاد القوقاز ووسط آسيا كذلك .

وبدأ التمهيد للطغيان الروسى على القوقاز حين تولى قيصرية روسيا سنة (٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) حاكم عدوانى هو القيصر « إيفان الثالث » الذى قاد حملة قاتل بها التتار المسلمين وأخرجهم من موسكو بعد أن دامت فى أيديهم (٢٤٠) عاما ، وبذا انتقل من التبعية لإمارة المسلمين فى قازان التتارية على نهر الفولجا إلى العدوان على تلك الإمارة نفسها ، وإنزال الهزائم بقوتها العسكرية فقد فتح هذا العدوان الروسى السبيل لهدم السور الإسلامى ببلاد الفولجا الذى كان يقف سدا منيعا يحمى بلاد القوقاز من خطر الشمال .

ثم تولى فاسيلى الثالث والد إيفان الرهيب ، وقد توطدت العلاقة بينه وبين البابا الذى طلب منه أن يعجل بطرد المسلمين إلى سيبيريا وتشتيتهم واعدا إياه

---

(١) انظر : د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٣٤ ـ ٣٩ ، نوريس : الإسلام فى البلقان ص ١٢٤ وما بعدها .

بالقسطنطينية التى كان السلطان العثمانى محمد الفاتح قد فتحها سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) .

ولكن أخطر هؤلاء القياصرة هو إيفان الرهيب ، وقد أطلق المسلمون عليه هذا اللقب لحرب الإبادة الشاملة التى شنها ضدهم ، فقد فرض عليهم أن يتنصروا أو يتركوا أوطانهم ويهاجروا مثلما فعل الإسبان بمسلمى الأندلس . واستولت قواته الروسية على إمارة قازان الإسلامية سنة (٩٦٠هـ / ١٥٥٣م) ، وفرض على أهلها المسلمين أشد ألوان الطغيان ، وهو حملهم على ترك دينهم أو ترك وطنهم والهجرة إلى خارج البلاد . طبق إيفان السياسة الطاغية نفسها على المركز الإسلامى الثانى على نهر الفولجا وهو إمارة أستراخان ، وصارت القوات الروسية الباغية على مداخل بلاد القوقاز [1] .

وكانت تتقاسم بلاد القوقاز إذ ذاك قوتان إسلاميتان متعاديتان ـ كما سبق الذكر ـ هما : دولة الفرس الصفوية الشيعية ، ودولة الأتراك العثمانيين السنية ، هذا فضلا عن انقسام شمال بلاد القوقاز نفسها إلى كيانين سياسيين : أحدهما يشكل اتحادا فيدراليا من أمراء سكان القوقاز من القبرطاى ، والآخر يتكون من إمارة تقع شمال داغستان وهى إمارة تاكى ، ومن ثم وجد قياصرة روسيا الفرصة سانحة للزحف على بلاد القوقاز باعتبارها لقمة سائغة ، فقام إيفان الرهيب غداة استيلائه على أستراخان ببناء قلعة على مصب نهر تيرك ، كما قام بالوقيعة بين الكيانين السياسيين المحليين ببلاد القوقاز ، فأعلن إيفان الرهيب تأييده للقبرطاى ، متخذا من ذلك سبيلا لإعلان خضوع القبرطاى لسلطان الروس ، غير أن حاكم إمارة تاكى تصدى لهذا الزحف الروسى المبكر على بلاد القوقاز ، وأنزل الهزيمة بالقوات الروسية سنة (١٥٩٣م) ، كما لحقت بالقوات الروسية هزيمة أخرى سنة (١٦٠٤م) .

ترتب على ذلك حمل الروس على التخلى مؤقتا عن قلاعهم الأمامية

---

(١) قارن هذا بعهود أمان المسلمين لأهالى القوقاز حين فتحوها كعهد عتبة بن فرقد ومحمد أوزبك السابقين ولك أن تعجب ثم تعظ بعد ذلك .

بالقوقاز ، ولكن الزحف الروسى مالبث أن تجدد على بطرس الأكبر (١٠٩٢ - ١١٣٨هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٥م) الذى جدد سياسة أسلافه ففرض التنصير على المسلمين بالقوة أو الفرار من أراضيهم وأوطانهم ، وعمد إلى مهاجمة مناطق نفوذ الصفويين والعثمانيين فى القوقاز ، فأعد جيشا نقله بحرا من أستراخان إلى ساحل داغستان بالقوقاز ، واحتــل المنطقة المــتدة إلى مدينة باكو (عاصمة أذربيجان الحالية) على ساحل بحر قزوين ، غير أن الروس اضطروا إلى التخلى عن تلك المناطق فيما بين سنتى (١٧٢٩م - ١٧٣٥م) ، وذلك بسبب ازدياد قوة الفرس الصفويين .

كما بدأ هذا القيصر نفسه سياسة محاولة الوصول إلى المياه الدافئة ، واتجه جنوبا جنوب شمال البحر الأسود إلى منطقة أزوف واحتلها سنة (١٠٠٨هـ / ١٦٩٦م) ، ولكن الدولة العثمانية استعادتها سنة (١١١٢هـ / ١٧٠٠م) ، ولم يتمكن بطرس الأكبر من الاستيلاء على القوقاز لمواجهته مقاومة شرسة من مسلميها الأشداء الذين كان يقودهم رجال الطريقة النقشبندية الصوفية (١) .

وسارت الإمبراطورة حنا (١١٥١ - ١١٦٩هـ / ١٧٣٨ - ١٧٥٥ م) على نهج إيفان الرهيب ، ففرضت التنصير فى المجرى الأوسط لنهر الفولجا وصادرت الأوقاف وغلقت المساجد ، وأصدرت أمرا بإعفاء التتار المرتدين عن الإسلام إلى النصرانية من الضرائب والخدمة العسكرية ، ومعاملتهم معاملة حسنة ليحذوا بقية المسلمين حذوهم ، وبالمقابل ازداد الضغط على المسلمين ، وأثقلوا بالضرائب الفادحة ، وأجبروا على الخدمة فى أخس الوظائف ، ومنعوا من ممارسة شعائرهم الدينية ، وأقفلت جميع مدارسهم ومساجدهم ، وصودرت أوقافهم الدينية ، واختطف منهم أبناؤهم الصغار ، وأدخلوا المدارس التبشيرية ، حتى ينشأوا على النصرانية الأرثوذكسية ، أما المسلم الذى كان يدعو للإسلام حتى بين إخوانه المسلمين كان يحكم عليه بالإعدام .

ولجأت الإمبراطورة كاترين الثانية (١١٧٦ - ١٢١١هـ / ١٧٦٢- ١٧٩٦ م)

---

(١) سيأتى الحديث بالتفصيل لاحقًا عن حركات المقاومة الإسلامية للنفوذ الروسى بالقوقاز .

إلى إقرار النفوذ الروسى ببلاد القوقاز وذلك بإقامة خط القوقاز ، وهو عبارة عن سلسلة من القلاع والحصون والمستوطنات للقوزاق (الجند) الروس تمتد من الشرق إلى الغرب . وقد اضطرت هذه السياسة الروسية حكام القبرطاى المسلمين بشمال القوقاز إلى إعلان خضوعهم للروس سنة (١٧٧٩م)، وتابعت الإمبراطورة كاترين سياسة التوسع الروسى فى القوقاز ، وخاصة للقضاء على النفوذ العثمانى بتلك البلاد وما جاورها من سلطان فى القوقاز لهم بشبه جزيرة القرم . كما نجح الروس فى القضاء على النفوذ العثمانى ـ الآخذ فى الضعف ـ وبخاصة فى أرمينيا ؛ حيث تدخل الروس ضد العثمانيين هناك تحت ستار حماية الأرمن النصارى من بطش العثمانيين (١) .

تجاه هذا التسلط الروسى بدأت الصحوة الإسلامية ببلاد القوقاز فى المجالات المختلفة دينيا وثقافيا وسياسيا ، وقد حمل لـواءها ومنحها طابعها ومفهومها الإسلامى قادة من المتصوفة المجاهدين الذين انتشرت طرقهم منذ فترة مبكرة فى تلك البلاد ـ كما أسلفناه ، وكانوا على درجة عالية من الإخلاص فى العمل مع الخبرة الواسعة بأحوال مواطنيهم .

انطلقت المرحلة الأولى من هذه الصحوة من بين المتصوفة فى أذربيجان ؛ حيث اشتهر منهم فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى الشيخ: السيد يحيى ، الذى كثرت أعداد مريديه حتى بلغت عشرة آلاف مريد ، وصارت المنطقة مركزًا مهما من مراكز الطريقة النقشبندية، ومنها انتقلت إلى الداغستان والشيشان ، وصار أتباعها فى هذين المكانين يكونون حركة عرفت باسم « المريدية » نسبة إلى أنهم من مريدى مشايخ المتصوفة .

واستهدفت حركة المريدية بصحوتها فى بلاد القوقاز الإصلاح الدينى فى إطار الشريعة الإسلامية التى تنادى بالمساواة بين الفقراء والأغنياء ، ولقيت الحركة قبولا شعبيا من أهالى القوقاز ، لاسيما أنها دعت ـ إلى جانب الإصلاح الدينى ـ إلى

(١) د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٤٠ ـ ٤٣ ، المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز ص ١٣٠ ـ ١٣٣ .

التحرر من ربقة الاستعمار الروسى وطغيانه الجاثم على أنفاس المسلمين بالقوقاز، وصار الجهاد هو الطابع الذى حمل لواءه المتصوفة لتحرير بلاد القوقاز .

وأول من نادى بالجهاد ضد الروس كان الشيخ « منصور أشرمة » ، وهذا القائد الرائد للصحوة الإسلامية بالقوقاز من مواليد الشيشان ، ثم تلقى علومه فى بخارى ، ودرس القرآن الكريم فى داغستان ، ويروى عنه الشيشانيون وشعوب القوقاز: أنه رأى الرسول الكريم فى منامه يحضه على الجهاد ضد الروس ،وأن هذه الرؤيا تكررت ثلاث ليال متتاليات ، وقد حدث الشيخ أقرباءه بهذه الرؤيا ، وهو الأمر الذى صادف عندهم قبولا ، وطالبوه بتنفيذ ما أمره الرسول الكريم به .

استجاب الشيخ منصور لرجاء مواطنيه وأعلن الثورة ضد الروس سنة (١٧٨٥م) ، وفوجئت روسيا القيصرية بهذه الصحوة فى بلاد القوقاز ، وسرعة استجابة المسلمين فى تلك البلاد لندائها ؛ إذ سرعان ما تجاوبت شعوب الشيشان والداغستان والقبرطاى والنوغاى مع دعوة الشيخ منصور ، والتى صارت تعرف باسم الحركة النقشبندية .

وجاءت تلك الوحدة بين مسلمى شمال القوقاز تحت قيادة الشيخ منصور سبيلا أتاح للدولة العثمانية التصدى للزحف الروسى على الوجود التركى فى شبه جزيرة القرم والأجزاء الشمالية من القوقاز ، وكانت روسيا قد هاجمت سنة (١٧٨٧م) قلعة « أنابا » على ساحل البحر الأسود ، وهو الأمر الذى حمل الدولة العثمانية على طلب مساعدة الشيخ منصور زعيم القوقاز ضد الروس ، وبادر الشيخ منصور بتلبية طلب الدولة العثمانية ، وشن هجوما من الخلف على القوات الروسية فى منطقة « أوبون » وقتل ثلاثة آلاف جندى روسى فى المعركة التى دارت رحاها إذ ذاك ، واضطرت السلطات الروسية أمام شدة وطأة تلك الهزيمة أن تعزل الجنرال « توكالى » قائد القوات التى هاجمت قلعة « أنابا » ونصبت بدلا منه الجنرال « بيكوف » .

استطاعت السلطات العثمانية أن تستفيد من نشاط الشيخ منصور الحربى ، وبعثت بتعزيزات إلى قلعة « أنابا » قوامها ثلاثون ألف جندى تحت قيادة حسين

باشا ، واستطاعت القوات العثمانية بمؤازرة قوة الشيخ منصور الصمود فى قلعة أنابا حيث عجز القائد الروسى بيكوف عن الاستيلاء على القلعة .

واضطرت السلطات الروسية مرة أخرى إلى عزل القائد بيكوف وتعيين خلفا له للهجوم على أنابا وهو القائد «بيلمان» . وجد الشيخ منصور أن أمثل طريقة لمواجهة هذا التغيير فى السياسة الروسية تجاه قلعة أنابا هو العودة للعمل على مهاجمة الصفوف الخلفية للقوات الروسية ، ومن ثم قام بالتنسيق مع القوات العثمانية ، بالخروج من قلعة أنابا ومعه مقاتلوه ، ليهاجم أحد مساعدى القائد الروسى بيلمان وهو الجنرال جيرمانين ، على أن تبادر القوات العثمانية بمؤازرة الشيخ منصور وهو ملتحم فى قتال الروس خارج قلعة أنابا ، وجرت معركة «كبيروسكوى» بين الشيخ منصور والقوات الروسية ، اضطر فيها إلى الانسحاب بقواته ؛ لأن الدولة العثمانية عجزت عن تنفيذ الخطة الخاصة بإرسال التعزيزات المقرر إرسالها له .

كان انسحاب الشيخ منصور مناورة ناجحة لإعادة تعبئة صفوفه ، إذ سرعان ما عاد إلى أرض المعركة وشن هجوما واسعا على القائد الروسى جيرمانين واضطره إلى الانسحاب من حصار قلعة أنابا ، غير أن الإمبراطورة كاترين ، التى كانت تحكم روسيا فى ذلك الوقت ، ساءها هذا الانتصار الذى ناله الشيخ منصور فى مواجهة القوات الروسية ،وأرسلت قوات روسية كبيرة تحت قيادة الجنرال غورد وفيتش إلى قلعة أنابا لمهاجمة التحالف بين الأتراك العثمانيين والشيخ منصور . واستطاعت القوات الروسية اقتحام قلعة أنابا يوم (٢٢/٦/١٧٩١م)؛ حيث قام الأتراك بمفاوضة الروس على الاستسلام .

احتج الشيخ منصور على هذا الإجراء العثمانى وحث العثمانيين ، دون جدوى على مواصلة القتال ؛ ولذا نهض الشيخ منصور ومقاتلوه وحدهم بعبء التصدى للقوات الروسية التى دخلت قلعة أنابا ، وحارب فى بسالة منقطعة النظير حتى سقط جريحا على أرض المعركة ، شأن الأبطال العظام الذين لا يهابون الموت فى سبيل الدفاع عن أوطانهم . وقد تم أسر الشيخ منصور حيث استشهد فى

سجن شليسبرج فى أبريل سنة (١٧٩٤م)، وذلك بعد أن قاد الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز على امتداد ست سنوات من الجهاد المتواصل ، أظهر خلاله فرسان القوقاز من الشيشان والداغستان والنوغاى والشراكسة كل ألوان البطولة والمهارة الحربية مع الصمود الرائع [1] .

بدأت المرحلة الثانية من الصحوة الإسلامية ببلاد القوقاز وقامت كرد فعل للزحف الاستعمارى الروسى على بلاد القوقاز التى قرر القيصر ألكسندر الأول احتلالها احتلالا كاملا فى مطالع القرن التاسع عشر الميلادى ، وذلك حين اختار القائد الروسى يرسلوف سنة (١٨١٨م) لإخضاع بلاد الشيشان رغبة فى الانتقاص من شأن تلك البلاد التى ارتفع شأنها نتيجة الصحوة التى انطلقت منها تحت قيادة الشيخ منصور .

بدأت القائد الروسى أعماله باختيار قرية شيشانية على ضعاف نهر السونجا أسماها « سنجار غالا » أى : قلعة سولجار ، قام بهدمها ، وبنى على أنقاضها قلعة ضخمة أطلق عليها اسم «جروزنى » ، وهى كلمة روسية تغنى : الرهيب ، تهديدا لشعب الشيشان وإحياء لذكرى إيفان الرهيب مؤسس روسيا القيصرية وحامل لواء الزحف المبكر على أراضى المسلمين فى بلاد الفولجا .

واتخذت الجيوش الروسية - فعلا - من جروزنى نقطة انطلاق لعملياتها الحربية فى بلاد الشيشان ، حيث سلكت أسلوب الأرض المحروقة لتدمير الشيشان وإنزال الفزع فى نفوس الأهالى . ولم تفلح تلك الممارسات الرهيبة فى النيل من عزيمة أهل الشيشان ، مما اضطر القيصر نيقولا الذى خلف والده ألكسندر إلى عزل القائد الروسى « يرسلوف » سنة (١٨٢٧م) .

وبعد ثلاثة أعوام ، فى سنة (١٨٣٠م) ، اندلعت الثورة بقيادة القاضى الملا محمد فى الداغستان ،وقد ولد هذا الزعيم فى غمرى بالداغستان سنة (١٧٩٣م)، وتعلم اللغة العربية، واشتهر بإخلاصه الشديد لبلاده وغيرته عليها من الاستعمار

---

(١) د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٦٧ - ٧١ .

الروسى لأرجائها ، ومن ثم لم يرض عن تقاعس أمراء داغستان فى التصدى للاستعمار الروسى ، وكتب كتابا سماه « إقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان» ثم أعلن الجهاد متخذا له اسم «الغازى محمد » .

جعل الملا غازى مقره فى مدينة غمرى فى بلاد الداغستان ، وذلك رد فعل لتحركات الروس الحربية وللتصدى لأعمالهم الوحشية . وتابع الإمام غازى ملا المقاومة الإسلامية التى نهض بها أسلافه من قادة الحركة المريدية الإسلامية ، واستطاع تدمير العديد من الوحدات العسكرية الروسية ، كما تمكن من اختراق خط القوقاز الذى أقامه الروس ، وهاجم مدنا عديدة وراء نهر تيرك ، غير أن القوات الروسية تمكنت أخيرا من الاستيلاء على غمرى عاصمة المريدين حيث استشهد الإمام غازى ملا .

تسلم القيادة المريدية تلميذه الإمام حمزة الذى ولد سنة(١٧٨٩م) ، وتعلم اللغة العربية ودرس القرآن الكريم ، وقد أصبح واحدا من أكثر أتباع غازى وملا حماسة ، غير أنه لم يلبث أن استشهد بدوره فى يونيو سنة (١٨٣٤م) بعد فترة رائعة من الجهاد [١] .

ووجدت الصحوة الإسلامية فى تلك المرحلة الثانية فى بلاد القوقاز خير خلف لكل من الإمام غازى ملا ، وكذلك حمزة فى « الإمام شامل » ، الذى ولد سنة (١٧٩٧م) فى مدينة غمرى بداغستان ثم تلقى مبادئ المريدية على يد غازى ملا وأخيرا آلت إليه قيادة الحركة المريدية الإسلامية بالقوقاز سنة (١٨٣٤م) .

نظم الشيخ شامل قصيدة صوفية لأتباعه المجاهدين لتحل محل الأناشيد الدينية التى كانت شائعة فى أيامه ، وجاء فى تلك القصيدة ما يلى :

يا الله ، أعطنا ما نتمنى من غايات ،لكى تبتسم لنا السعادة ونستريح فى ظل الله ، إكراما لله ، نحن عبادك التعساء ، لا نرفع تسبيحنا إلا لك ، إكراما لله . استمعنا لمشيئتك يارب ، إنها مبتغانا ومرادنا ، واسمك هو عدتنا ، وتسبيحك

(١) فامبرى : تاريخ بخارى ص ٤٩٥ .

سلاحنا ، لأجل الله .

استطاع الإمام شامل القيام بأعباء الصحوة الإسلامية وجهاد الروس حتى سنة (١٨٣٩م) ، حين تمكنت القوات الروسية من هزيمة أتباعه فى بلدة « أضولكو» بإقليم أفاريا بالداغستان ، غير أن الإمام شامل استطاع النجاة مع عشرة من حرسه الخاص ، وعاد مرة أخرى بعد سنة واحدة من هزيمة لقيادة الصحوة والمقاومة متخذا من بلاد الشيشان مركزًا لعملياته الحربية .

تدفق المقاتلون الشيشانيون من الجبال على الإمام شامل ، وتمكن الإمام من استرداد إقليم أفاريا ومعظم بلاد الداغستان فيما بين ستى (١٨٤٠ - ١٨٤٢م) ، وأن يطهرها من العناصر التى استقطبها الروس إليهم فى تلك النواحى ، وقد حفزت هذه الانتصارات الشراكسة فى الشمال الغربى من القوقاز على إعلان الثورة على الروس ، والقيام بغارات على القلاع الروسية التى تقع على البحر الأسود من بلادهم ، وأبادوا الكثير من حامياتها حتى صار الموقف حرجًا بالنسبة للروس فى بلاد القوقاز .

وظل الإمام شامل يتابع رعاية الصحوة الإسلامية بالقوقاز من مقر قيادته الذى اتخذه فى عاصمته « دارغو » بالشمال الشرقى للشيشان . وأجاد الإمام شامل تنظيم حركة المقاومة القوقارية للزحف الروسى حيث أعد العدة له القيصر نيقولا ، الذى استهدف تعبئة أكبر قدر ممكن من قواته للاستيلاء على « دارغو » عاصمة الإمام شامل نفسه ، وكان القيصر قد عهد بقواته التى بلغ عددها عشرة آلاف رجل إلى القائد « غراب » الذى سبق له الانتصار على الإمام شامل فى معركة «أضولكو » سنة (١٨٣٩ م) .

جرت خطة الإمام فى تعبئة قواته على أساس حشد ألفين من رجاله على امتداد الطريق إلى عاصمتة « دارغو » ؛ حيث عهد بقيادتهم إلى نائبه شعيب الذى اشتهر بقدرته على حرب العصابات . إذا أمر شعيب رجاله باعتلاء أشجار البلوط العملاقة التى تقع على جانبى الطريق إلى دارغو ، وحولها بالتالى إلى أبراج دفاعية مرتجلة ، مهمتها صب النيران على القوات الروسية الزاحفة على «دار غو»

ودارت رحى معركة شرسة بين قوات الإمام شامل من حصونها الدفاعية بأعالى شجر البلوط ، وبين القوات الروسية الزاحفة التى عجزت رشقات نيرانها عن النيل من خطوط الدفاع القوقازية ، وغدت تعانى من ويلات القتال وبخاصة أنها كانت بدون ماء ، واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب وهى فى حالة فوضى شديدة ، ونزلت بها هزيمة فادحة ، تكبدت فيها خسائر بالغة سواء من حيث الأرواح أم المعدات ، بلغت ستة وستين ضابطا وأكثر من ألف وسبعمائة جندى بين قتيل وجريح ،فضلا عن ضياع التجهيزات التى كان الروس يحملونها معهم .

وأدى هذا النصر الذى ناله شعيب نائب الإمام شامل على قوات الروس إلى تعزيز الصحوة والمقاومة الإسلامية التى يقودها الإمام ، وانتقاله فى شمال القوقاز من الدفاع إلى الهجوم الشامل على الروس . فصارت القلاع الروسية والحصون فى شمال القوقاز ، فيما بين عامى سنة (١٨٤٣ ، ١٨٤٤م) عرضة للهجمات الخاطفة التى شنتها قوات المريدين القوقازية ؛ بحيث بلغت خسائرها ما يقرب من ثلاثة آلاف قتيل ، وضياع أكثر من اثنى عشر حصنا من حصونها المنيعة (١) .

واستطاع الإمام شامل أن يتصدى بحسن تعبئته لصفوف قواته للحملة الكبرى التى أعدها قيصر روسيا للانتقام مما لحق بقواته من خسائر على يد رجال الحركة المريدية القوقازية ؛ إذ وجد الروس قواتهم بالقوقاز ، حيث جمعوا بين قواتهم المحاربة فى كل من الشيشان والداغستان ، وعززوها بقوات إضافية ، وعهدوا بالقيادة العليا لأشجع قادتها وهو الجنرال «فورنستوف» الذى عمد إلى إضفاء معالم الهيبة على حملته عدا وعدة . فاستطاع أن يحشد تحت قيادته أكثر من ثمانية عشر ألف جندى ، بالإضافة إلى حرسه الخاص من الفرسان الأكراد المزودين بالسلاح وعليهم الملابس المزركشة . وضم القائد الروسى أيضا إلى جيشه نخبة من كبار العائلات الروسية إمعانا فى إضفاء الهيبة على زحفه المقبل .

واجه الإمام شامل هذا الحشد الروسى بخطة عالية من حرب العصابات ،

---

(١) د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٧١ وما بعدها ، فامبرى : تاريخ بخارى ص ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

وذلك حين تقدمت القوات الروسية نحو عاصمته دارغو فى يونيو سنة (١٨٤٥م)، إذ دارت حرب حواجز ومتاريس حين اقتحمت القوات الروسية البلدة ، وعندما سقطت المدينة فى أيديهم فى السابع من شهر يوليو غادر شامل عاصمته بعد أن تم حرقها وتسويتها بالأرض ليحول بين الروس وبين الإفادة مما حققوه من نصر .

تم وضع خطة لمواصلة حرب العصابات ضد الروس الذين قرروا الانسحاب من دارغو ، وأنزل هزيمة فادحة بالقوات الروسية وهى فى طريق الانسحاب ، حتى إنه لم يعد من تلك القوات البالغ عددها أكثر من ثمانية عشر ألف مقاتل سوى خمسة آلالف معظمهم من الجرحى ، وكان من بين القتلى الروس بعض قوادهم الكبار ، ولم ينجح القائد الروسى العام الجنرال «فورنستوف» إلا بعد أن وصلته نجدة سريعة .

وظل الإمام شامل يقود الصحوة القوقازية حتى سنة (١٨٥٩م) حيث تمكن أثناءها من مساعدة الدولة العثمانية فى حروبها ضد روسيا ، فعندما شبت حرب القرم سنة (١٨٥٣م) قام الإمام شامل بمهاجمة جورجيا ، وهو الأمر الذى اضطر الروس إلى سحب جزء كبير من قواتهم من الجهة التركية [١] .

ولم تستطع روسيا مواجهة حركة الإمام شامل إلا بعد سنة (١٨٥٦م) حين انتهت حرب القرم ؛ حيث تمكن الأمير الروسى باريسكى ولى عهد القيصر من هزيمة الإمام شامل فى معركة غونتيب فى إقليم الداغستان سنة (١٢٧٩هـ / ١٨٥٩م) ، وتم نفى الإمام بعد أسره إلى تركيا ، حيث ذهب منها إلى المدينة المنورة التى توفى بها سنة (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) ، ودفن بالبقيع مع الشهداء والصديقين المسلمين .

ترتب على حركة الإمام شامل بقاء الحكم الروسى فى بلاد القوقاز مزعزعا دون أن تستقر أوتاده ، إذ ظلت المقاومة القوقازية عنيفة ، وخاصة بين الشراكسة الذين تمتعوا باستقلال كامل فى كثير من مناطقهم ، ولم تستطع روسيا إخضاعهم

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلمية ص ٢٦٧ وما بعدها .

إلى سنة (١٨٦٢م) حيث قامت بطرد أكثر من ستمائة ألف شركسى من بلادهم ، كما قامت بتجهيز عدد كبير من الشيشان ، وقد اتجه معظم المهاجرين إلى سوريا وفلسطين .

غير أن الصحوة القوقازية ظلت تؤرق الروس بالرغم من أعمالهم العدوانية الواسعة . إذ توالت حركات التحرر التى انطلقت من بلاد الشيشان تحت قيادة مجاهدين عديدين ، إلى أن وصلنا إلى حركة الزعيم الشيشانى على بك حاجى الذى هزمه الروس وأعدموه فى العاصمة جروزنى سنة (١٨٧٨م)، وظلت روسيا لاتهنأ بوجودها فى بلاد القوقاز بسبب الصحوة والمقاومة الإسلامية التى قادتها حركة المريدية ، حتى انتهى عهد روسيا القيصرية وبدأ العهد البلشفى السوفيتى بعد الثورة البلشفية سنة (١٩١٧م)[(١)] .

القوقاز تحت النفوذ السوفيتى :

تعرض مسلمو القوقاز لخديعة كبرى ومعاناة شديدة نتيجة الأحداث التى وقعت فى روسيا فى مطلع القرن الحالى ، وهى الأحداث التى أدت إلى قيام الثورة الروسية البلشفية الشيوعية فى أكتوبر (١٩١٧م) ضد حكم القياصرة . إذ تطلع قادة تلك الثورة وعلى رأسهم لينين ، وهم يخوضون القتال ضد خصومهم إلى الحصول على تأييد مسلمى القوقاز المشهورين بالشجاعة ، ومعهم سائر المسلمين فى البلاد الأخرى حول نهر الفولجا ووسط آسيا .

فقد أصدر لينين جريا على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» فى ٢٢ نوفمبر سنة (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، أى بعد شهر واحد من توليه السلطة ، بيانا إلى مسلمى القوقاز وإلى غيرهم من المسلمين داخل روسيا وخارجها يبشرهم بوعود خلابة قوامها تحرر المسلمين داخل روسيا من حكم القياصرة البغيض ، وحض المسلمين خارج روسيا ، وبخاصة فى البلاد العربية على الثورة ضد الاستعمار الأوربى الجاثم على أنفاسهم ، كما فضح لينين الاتفاقات السرية التى سبق أن أبرمتها تلك

---

(١) منروف : العرب والإسلام فى أوزبكستان ص ٣٩٥ .

القوى الاستعمارية الأوربية مع قياصرة روسيا لتفتيت العالم الإسلامى وتقسيم بلاده فيما بينهم .

وجاء فى هذا البيان الأول الذى أصدره لينين الدعوة البراقة والوعود الخادعة التالية : «يا مسلمى روسيا، يا مسلمى الشرق ، أيها الرفاق ، أيها الأخوة ، إن أحداثا عظيمة تحدث الآن فى روسيا، إن العهد الدموى الذى بدأ بسبب أطماع الاستعمار بين الإمبرياليين (الاستعماريين) فى أرضكم قد قارب النهاية، وتحت ضربات الثورة الروسية ، فإن النظام الاستعبادى الاستبدادى يتقوض بناؤه الآن ، وإن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصى الشعوب يقترب من أيامه الأخيرة الآن ، وإن عالما جديدا يولد الآن ، عالم العمال والأحرار . . . و فى خضم هذه الأحداث نلتفت إليكم يا مسلمى روسيا ، يا تتار الفولجا والقرم ، أيها القرغيز وسكان سيبريا والتركستان ، يا سكان القوقاز الأبطال ، وقبائل الشيشان وسكان الجبال الأشداء ، أنتم يا من هدمت مساجدكم وحطمت معابدكم . . . ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم ، وحاربوا دينكم . . . وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم . . . ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة . إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم ، وإن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها . . . ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون معوقات ، واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة . . . لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ، من أجل حريتكم الدينية والمدنية (١) » .

اتخذ لينين بعد ذلك خطوات أخرى مظهرية إمعانا فى خداع المسلمين فى روسيا واجتذابهم إلى صفه فقام بتسليم مصحف عثمان ﷺ ،والذى كان فى حوزة القياصرة إلى ممثل المسلمين فى مؤتمر بتروجراد ، هذا فضلا عن تسليم عدد كبير من الآثار والوثائق الإسلامية المهمة التى كان القياصرة قد استولوا عليها ،

(١) د . أحمد عبد القادر الشاذلى : الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا ١٩٩٤م ص ٦٩وما بعدها ، د . العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٤٤ ـ ٤٦ .

وكان مسلمو القوقاز يشاركون إخوانهم من مسلمى روسيا الآخرين فى استلام هذه الثروات الإسلامية وتراثها المجيد ، نظرا لمكانتهم ودورهم المهم فى العالم الإسلامى.

بادر مسلمو القوقاز إلى انتهاز تلك الوعود التى قدمها لينين لهم خاصة ، وللمسلمين عامة ، وأعلنوا استقلالهم سنة (١٣٣٧هـ/ مايو ١٩١٨م)، وتبعتهم جورجيا بعد بضعة أسابيع ، غير أن أهالى القوقاز وكذلك إخوانهم من مسلمى روسيا سرعان ما تبين لهم خداع لينين لهم ، وذلك حين قام هو بنفسه بالحملة على المناطق الإسلامية بروسيا سنة (١٣٣٧هـ/أبريل ١٩١٨م)، وتابع لينين الاستيلاء على بلاد القوقاز الواحدة بعد الأخرى من سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) حتى (١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م)، حيث استبد الطغيان الروسى مرة أخرى بمسلمى القوقاز .

وأخذت بلاد القوقاز تشهد مع غيرها من بلاد المسلمين فى روسيا طغيانا شيوعيا رهيبا ، اتجه منذ سنة (١٩٢٨م)، وحتى إعلان الحرب العالمية الثانية إلى الهجوم المباشر ضد الدين الإسلامى ، واتخذ هذا الهجوم الروسى على الإسلام مظهرين خطيرين :

أولهما: إغلاق المساجد والمدارس الدينية ، وتشريد من كان بها من المعلمين.

وثانيهما: شن حملة من الدعاية الضخمة ضد الإسلام وتكرر هذا الهجوم الروسى مرة أخرى ضد مسلمى القوقاز وغيرهم من مسلمى روسيا فى الفترة من سنة (١٩٥٤) إلى سنة (١٩٦٤م)، حيث شارك فى هذا الهجوم الأجهزة الروسية كافة من صحافة وإذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح ، كما تم فى هذه الفترة طبع ما يزيد على مائة وثلاثين كتابا مناهضا للإسلام ، وتركزت الحملات ضد الإسلام بصفة خاصة على موضوع المرأة المسلمة وعقيدة اليوم الآخر، والجنة والنار باعتبارها من الأمور الغيبية التى تخدر بها الشعور، وأن الدين الإسلامى مع غيره من الأديان ـ جريا على الدعوة الإلحادية الروسية ـ أفيون الشعوب .

شهدت فترة حكم ستالين التى دامت حتى عام(١٩٥٣م) ألوانا من القهر والسخرة فى العمل ، فقد قتل داخل الاتحاد السوفيتى عشرات الملايين أو طردوا أو سجنوا أو شردوا ، وتم القضاء على الملكية الفردية، كما شنق مئات الآلالف ممن أطلق عليهم أعداء الشعب .

وقد تعرض المسلمون خلال تلك الفترة إلى صنوف القهر والتعذيب والتشريد والتهجير الإجبارى ، وإلى تقسيم أراضيهم والاقتطاع منها وتهجير الروس والأوكرانيين إليها ، بعد تغيير التكوين الديموغرافى والعرقى والدينى لهذه الأقاليم ففى عام(١٩٤٣م) سلمت بلكار إلى جورجيا بعد اقتطاعها من جمهورية كبار دينو بلكار ، وتم محو اسم بلكار وتنازلت روسيا عن شبه جزيرة القرم لأوكرانيا ، وكان تولى المسلمين للمناصب العامة أدنى كثيرا من نسبتهم الحقيقية إلى كل الشعوب السوفيتية ، ومن ناحية أخرى فرضت عليهم اللغة الروسية كلغة رسمية وكلغة للتعامل فى كل نواحى الحياة، فانفصل معظم المسلمين عن كتاب الله وسنة رسوله، وعن كتب الفقه التى لم تكن مكتوبة باللغة الروسية، وصار من بقى من علماء المسلمين المسنين يعلمون الإسلام لمن تيسرله ذلك سرا .

كانت وطأة الترويس وتشتيت المسلمين وتذبيحهم على أشدها فى كازاخستان وقرغيزيا وبين التتار كانوا يقطنون شبه جزيرة القرم وحوض نهر الفولجا، وشتت معظمهم فى كل الاتحاد السوفيتى، ولا غرو فقد ظلت مقاومة المسلمين لعملية تغيير قيمهم وطريقة حياتهم حتى طلع ثلاثينيات القرن العشرين .

وقد ساعد فى تمكن السلطات السوفيتية من السيطرة على بلاد المسلمين فى وسط آسيا والقوقاز انضمام بعض المسلمين ممن تأثروا بالثقافة الروسية ، وتعلموا فى مدارسهم وجامعاتهم لأكثر من ثلاثين عاما، إلى الحزب الشيوعى ، ومن ثم تولوا مناصب مهمة فى بلادهم ، وأصبح ولاؤهم للسلطات السوفيتية .

وعلى الجانب السياسى الإدارى ، كان تقسيم الأراضى الإسلامية إلى جمهوريات وأقاليم ذات حكم ذاتى، يقصد به قطع كل صلة بين هذه الشعوب وبين الأمة الإسلامية من ناحية، وبينها وبين كل من تركيا وإيران من ناحية أخرى.

وبينها وبين بعضها البعض من جهة ثالثة ، فى إطار سياسة : فرق تسد ، وسياسة حرب الإبادة التى مارسها الروس ضد المسلمين .

كان طبيعيا أن تبدأ المرحلة الثالثة من الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز ، بدأت فى الأيام الأخيرة من حكم القياصرة لروسيا ، وذلك حين أعلن البرلمان الروسى (الدوما) الأول سنة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) الحرية الدينية للشعوب الروسية، وإباحة تأسيس الأحزاب الروسية . فقد شارك أهل القوقاز أقرانهم من مسلمى روسيا عقد المؤتمر الإسلامى السرى الأول سنة (١٩٠٥م) ، حيث صدرت توصياته بالمطالبة بالحقوق المدنية الشخصية وبالمساواة الوطنية مع الروس ، وتأكدت مشاركة أهالى القوقاز مع أقرانهم من مسلمى روسيا فى المؤتمرين الإسلاميين اللذين عقدا فى سان بطرسبورج سنة(١٩٠٦م)، وكذلك فى المؤتمر الثالث الذى عقد علنا فى العام التالى ، وتقرر فيه قيام حزب سياسى إسلامى للمسلمين كافة فى روسيا القيصرية [1] .

بدأ هذا الحزب الإسلامى نشاطه متواضعا ، حيث اقتصرت طلباته على حرية التدين وحرية التعليم، كما عرض تعاونه مع الروس بشرط الموافقة على طلباته . غير أن حكومة روسيا القيصرية هالها اندفاع الصحوة الإسلامية واتساع آفاقها، وذلك على نحو ما جاء فى تقرير أصدره وزير الداخلية الروسى سنة (١٩٠٦م)، أى بعد عام واحد فقط من منح الحرية الدينية ، حذر فيه من إعطاء المناطق الإسلامية حرية تكوين جمعيات سياسية ودينية ، ويأمر بإلقاء القبض على دعاة هذه الحركات باعتبارهم خارجين على القانون بتهمة كونهم جواسيس وعملاء للدولة العثمانية، وصل الموقف الروسى أشده ضد الصحوة الإسلامية حين أصدر القيصر نيقولا الثانى قرارا سنة (١٩١٠م) بحل البرلمان الروسى الذى أباح الحرية الدينية ، وتشكيل برلمان جديد على أن يقل عدد الممثلين للمسلمين فيه من خمسة

---

(١) انظر فى سياسة الترويس وأثارها مثلا : د . أحمد الشاذلى : الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا ص ٧٣ ، ٧٤ على سبيل المثال ، منروف : العرب والإسلام فى أوزبكستان ص ٤٠١ وما بعدها مثلا ، المسلمون فى اسيا الوسطى والقوقاز ص ١٥٢ ـ ١٥٤ .

وثلاثين شخصا إلى ستة أشخاص فقط .

وتابعت السلطات الروسية الحملة على الصحوة الإسلامية ، حيث أصدر رئيس الوزراء ستولينين منشورا سنة (١٩١٠م) كشف فيه عن تخوفه من نجاح تلك الصحوة ، وظلت الصحوة الإسلامية تواجه أساليب الروس العدائية ، خاصة حين قام البرلمان الرابع سنة (١٩١٧م) بالثورة ضد استبداد القيصر نيقولا الثانى ، وأطاح به ، وكون حكومة مؤقتة ، وأعلن قيام روسيا الليبرالية الديمقراطية . فقد عارضت هذه الحكومة الجديدة منح أى نوع من الاستقلال لمسلمى روسيا ، كما وقفت فى صف إنجلترا وفرنسا فى عدائهما للمسلمين ، ووافقت على المعاهدات السرية التى سبق لهاتين الدولتين عقدها مع قياصرة روسيا لتقسيم العالم الإسلامى فيما بينهم.

غير أن موازين القوى السياسية انقلبت فى ذلك الوقت حين قامت فى روسيا ثورة أكتوبر سنة (١٩١٧م) بقيادة لينين الذى أخذ يتقرب للمسلمين فى روسيا لمساعدته فى ثورته ضد حكومة روسيا ، وضرب على الوتر الحساس وهو إصدار البيانات الثورية التى تحمل الوعود البراقة لصالح المستضعفين ـ كما أسلفنا ـ وصدق المسلمون وعود لينين لهم بالحرية السياسية والاستقلال وناصروا ثورته .

وكان الإنجليز قد احتلوا بلاد القوقاز فى نهاية الحرب العظمى الأولى ، ووعدوا أهاليها بالاستقلال غير أن الإنجليز نكثوا بوعودهم ، على نحو ما قاموا به مع المسلمين فى بلاد الشرق الإسلامى ، وقاموا بتسليم القوقاز لحكومة روسيا الليبرالية. عندئذ قامت الثورة فى بلاد القوقاز استجابة لنداءات لينين ، بقيادة الإمام الداغستانى نجم الدين غوتسو فى نهاية سنة (١٩١٧م) ،وكان هذا الإمام من شيوخ الطريقة النقشبندية التى سبق لرجالها قيادة الصحوة الإسلامية ، واستمرت هذه الثورة ، حيث تكونت حكومة إسلامية فى الداغستان، كما أعلن القوقاز استقلاله سنة (١٩١٨م)، وأخذ شعب القوقاز يناضل ـ تحت قيادة نجم الدين غوتسو ورفيقه الصوفى أوزون حجى ـ سيطرة الحكومة الليبرالية عدوة لينين أنذاك.

لكن ـ وكما هو متوقع من هؤلاء المضللين ـ ما كاد لينين يحصل على النصر حتى احتل داغستان سنة (١٩٢٠م)، وعندئذ انقلب نجم الدين غوتسو إلى الثورة

ضد روسيا البلشفية ، وتابع النضال من أجل تحرير القوقاز، وظلت تلك الثورة قائمة حتى سنة (١٩٢٥م) عندما أسر غوتسو وأعدم فورا .

وكان لينين قد كشف أيضا من قبل عن خداعه للمسلمين حين بادر بالتصدى للصحوة الإسلامية، وذلك قبيل استقرار الأوضاع فى روسيا إذ أرسل مجموعة من الإرهابيين الروس الذين استقروا ببلاد القوقاز وقاموا بمذبحة كبرى سنة (١٩١٨م)، فى مدينة باكو بأذربيجان، راح ضحيتها نحو ١٨,٠٠٠ مسلم . غير أن المجاهدين فى القوقاز استطاعوا إيقاف تلك الأعمال الوحشية بمساعدة القوات العثمانية التى وصلتهم تحت قيادة نورى باشا ناظر الحربية ، وأعلنوا قيام جمهورية أذربيجان ، التى اعترف بها لينين نفسه مؤقتا ريثما ينتهى من إتمام ظفر ثورته . ثم عاد حين تمكنت له الأمور إلى سياسة البطش والتنكيل هو وخلفاؤه من بعده ، خاصة ستالين الذى نفى معظم أهالى شعوب القوقاز المسلمة إلى صحارى سيبيريا، وأحل محلهم قوميات أخرى كالروس والأوكرانيين لتذويب الأغلبية الإسلامية فى القوقاز .

وقد أدى هذا النفى الجماعى لشعوب القوقاز إلى سيبيريا إلى تقوية الصحوة الإسلامية بين تلك الشعوب ، على غير ما كان الروس يتوقعون ذلك أن الطرق الصوفية قد عبأت نشاطها بين أولئك المهاجرين فى منفاه ، حيث غدت تلك الطرق رمزا لبقاء تلك الشعوب ودافعا لإصرارهم على التحدى . وقام رجال تلك الطرق بنشر الإسلام فى مهجرهم ، حتى اضطرت السلطات الروسية إلى إعادتهم إلى أوطانهم مرة أخرى سنة (١٩٥٧م) .

وكان السبب فى تلك العودة هو ما تبين لمجلس السوفيت الأعلى من زيف الاتهامات التى وجهها ستالين لشعوب القوقاز ، ورميهم بتهمة التعاون مع قوات النازى الألمانى أثناء هجوم ألمانيا على روسيا خلال الحرب العالمية الثانية .

وقد وجدت شعوب القوقاز بلادهم مخربة ومساجدها مهدمة ، ومن ثم أقبل أهالى القوقاز مرة أخرى على دفع صحوتهم الدينية، كما زاد إقبالهم على الطرق الصوفية التى صار أتباعها يكونون نصف سكان القوقاز تقريبا. واستطاعوا بفضل ذلك الحفاظ على هويتهم قدر الإمكان، فى مواجهة ما ساد فترة ما بعد الحرب

العالمية الثانية من أيدلوجية إلحادية ، وتعميق للثقافة الشيوعية، وتحطيم لنظام الأسرة التقليدى المتماسك لدى المسلمين .

وذلك فضلا عن منع الكتابة بالحروف العربية، وتحويلها إلى الخط اللاتينى أولا ، ثم بعد ذلك إلى الحرف الروسى ، ولكن الشعور القومى عند أهالى القوقاز صار مرتبطا بالشعور الدينى الإسلامى ، وأتاح لأولئك الأهالى متابعة الصمود للحكم الشيوعى حتى نهايته، وتفتت الاتحاد السوفيتى وانهياره، وانقسامه إلى عدة دول وكيانات ، على رأسها روسيا الاتحادية التى ورثت الجزء الأكبر منه سنة (١٩٩١م) ، والتى رضخت لاستقلال معظم جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، وقبلت انفصالها إلا جمهوريات القوقاز الإسلامية (١) .

ومن ثم بدأت المرحلة المعاصرة من المقاومة الإسلامية التى يتولى قيادتها اليوم شعب الشيشان الباسل، الذى رفض مسلموه الموافقة على أن يظلوا على تبعيتهم لروسيا الاتحادية فواجهتهم القوات الروسية الغاشمة ببطش وتنكيل وتدمير لا مثيل له .

لعل خير ما يعبر عنه هو ما جاء فى مقال ضافٍ للأستاذ فهمى هويدى قال فيه: «ما يحدث فى شيشنيا من اجتياح وتدمير وقتل منظم، لا جديد فيه بالنسبة لى حيث أحسبه تكراراً لمشهد وقعت عليه من قبل حين زرت جروزنى عام (١٩٩٥م) ، فى أعقاب اجتياح القوات الروسية لها فى عام (١٩٩٤م)، ونشرت فى هذا المكان آنذاك (٧/١٨) مقالا تحت عنوان: « مشاهد القيامة فى جروزنى»، حيث كان انطباعى حين رأيت ما رأيت أن ما شاهدته أشبه بما يمكن أن يحدث يوم القيامة، يوم تزلزل الأرض زلزالها، وتفنى الدنيا بعد أن تنقلب رأسا على عقب. آنذاك وجدت جروزنى قد تحولت إلى مدينة للأشباح أبرز ما فيها تلال المخلفات المسكونة بالكلاب الضالة والفئران .

---

(١) راجع : د . أحمد الشاذلى : الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا، فامبرى : تاريخ بخارى ص ٥٣٠ وما بعدها، د. العدوى : المسلمون فى القوقاز ص ٧٩ وما بعدها . وانظر أيضا: أحمد عبد الرحمن : داغستان بعد الشيشان تواجه إمبراطورية الأمس،مجلة الوحدة، طهران عدد (٢٣١)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .

كان كل شيء يشهد بقسوة الجيش الروسى وبعمق رغبته فى الانتقام والتدمير ، الأمر الذى أصابنى بالدهشة والحيرة ، حتى تساءلت آنذاك : إذا كانت روسيا تعتبر هذه البلاد جزءا من أراضيها ، فلم تنتقم من شعبها بتلك الصورة المروعة ؟ وهل يمكن بعد الذى جرى أن يغفر الشيشانيون أو ينسوا ؟ ويقبلوا بالعيش راضين فى ظل الاتحاد الروسى ؟!

كان واضحا أن الروس لا يريدون كسر شوكة الشيشانيين فحسب ، وإنما كسر إرادتهم أيضا، عبر إذلالهم وتمريغ أنوفهم فى الأوحال ، وهم الذين يعرفون أكثر من غيرهم ما الذى تعنيه انتفاضة الشيشانيين الذين دوخوا هم وأشقاؤهم الداغستانيون تحت قيادة الإمام منصور جيوش القياصرة فى أواخر القرن الثامن عشر، ثم تحت قيادة الإمام شامل حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وحين جاءت الشيوعية فإن ستالين ظل متشككا فى ولائهم حتى نفى ألوفا منهم إلى سيبيريا إبان الحرب العالمية الثانية، كان بينهم كل شعب الأنفوش المسلم، وظل هؤلاء منفيين طيلة ثلاثة عشر عاما، إلى أن أعادهم خروشوف إلى ديارهم فى عام(١٩٥٦م)، لكنهم لم ينسوا أحزانهم ولا ثأرهم، فاهتبلوا أول فرصة لاحت لهم بعد سقوط الشيوعية ، فتمرد قائدهم جوهر دوداييف عام(١٩٩١م) وأعلن مواصلة مسيرة الإمام شامل مجسدا حلم بلاده فى الاستقلال والخروج من أسر الهيمنة الروسية ، ورغم أن الرجل دفع حياته ثمنا لذلك ، فإنه فتح الطريق لاعتراف موسكو بحكومة الشيشان المنتخبة بعد الاجتياح الذى تم فى عام (١٩٩٤م)، ومن ثم أصبحت شيشنيا شبه مستقلة من الناحية العملية ، وإن كان قد تم الاتفاق مع موسكو على بحث الوضع النهائى لجمهورية الشيشان فى وقت لاحق .

البطش الروسى كان واحدا حقا، لكنه اختلف فى الحملة الراهنة عن سابقتها التى تمت فى عام (١٩٩٤م) من زاوية الإخراج فقط . فى المرة السابقة كانت عملية القمع والسحق مكشوفة وسافرة ؛ ولذلك فإنها صدمت الرأى العام فى داخل شيشنيا وخارجها، وكسب الشيشانيون تعاطفا واسع النطاق آنذاك ، ولكن

الروس استوعبوا الدرس فاختلف الإحراج هذه المرة . . وبعد أن يشير الكاتب إلى أن الحملة الأخيرة سبقت بسلسلة من التفجيرات شهدتها موسكو ، ونسبت مباشرة دون تحقيق لما أسموه إرهابيين شيشانيين وانطلقت الصحف تعبئ الرأى العام ضد الإرهاب الإسلامى القادم من شمال القوقاز ، وبذلك ظهرت روسيا هذه المرة وكأنها لا تقمع شعبا ينادى بالاستقلال كغيره ممن استقلوا ممن كان ضمن الاتحاد السوفيتى السابق ، وإنما ظهرت كأنها تلاحق إرهابا أصوليا ادعت أنه يهددها ونجحت باستخدام مصطلحى الإرهاب والأصولية فى إخفاء الوجه القبيح للحملة، وكسب الرأى العام فى الداخل والخارج إلى جانبها ؛ ولذا فإن أحدا ـ حتى من بين الدول العربية والإسلامية إلا نادرا ـ لم يعترض على مبدأ الحملة وإنما فقط على شكل الأداء .

ثم يقول الكاتب : «الآن تجاوز عدد القتلى ٥٠ ألفا، وزاد عدد اللاجئين ـ الذى يعانون الأمرين وسط الثلوج، الآن ـ على مائتى ألف . . . وكل الذى فعله المجتمع الدولى لم يزد على كلام وتصريحات أطلقت فى الهواء .

ثم يجرى مقارنة مغرية بين هذه الحالة ونقيضتها حين هب الغرب مؤيدا بالقوة والضغوط استقلال تيمور الشرقية ، حين قال : «قامت قيامة الغرب غيرة على مقتل ٥٠ شخصا فى تيمور الشرقية ، بينما تراخى الجميع ومطوا شفاهم أسفا ، ثم دعوا إلى ضبط النفس حين قتل خمسون ألفا فى شيشنيا . لماذا ؟

ببساطة لأن التيموريين كان لهم ظهر فى الغرب تمثل فى البرتغال ـ المستعمر السابق ـ التى حملت لواء الدفاع عن التيموريين ، وفرضت قضيتهم على جدول أعمال الاتحاد الأوربى والأمم المتحدة ، إن شئت مزيدا من الدقة فقل : إنها الكنيسة البرتغالية التى حركت المشهد كله ، بعدما نجحت خلال ثلاثة قرون من الاحتلال فى تحويل نسبة غير قليلة من التيموريين إلى الكاثوليكية ، وتعهدت هؤلاء بالرعاية حتى استنفرت الفاتيكان الذى جند طاقاته لصالح انتزاع استقلال تيمور الشرقية ، وتحرير مواطنيها الكاثوليك من الحكم القمعى الذى مارسته

إندونيسيا ، التى هى أكبر دولة إسلامية » [1] .

وأخيرا ، ربما يحسن بعد هذه الرحلة الطويلة مع الجهاد الإسلامى فى القوقاز أن نختم بلمحة موجزة عن :

التوزيع الجغرافى للمسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق :

يكون المسلمون ٢٠٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفيتى السابق ، إذ يبلغ عددهم ٥٦ مليون وفقا لإحصاء ١٩٩١م ، ويتركز معظم هؤلاء المسلمين (٤٠مليون) فى إقليمى تركستان والقوقاز فى ست جمهوريات اتحادية والباقى فى مناطق متفرقة من روسيا الاتحادية .

إقليم تركستان :

تركستان الروسية أو جمهوريات وسط آسيا ، هى خمس جمهوريات اتحادية من خمس عشرة جمهورية تكون الاتحاد السوفيتى وهى: كازاخستان، أوزبكستان ، تركمانستان ، قيرغيزستان ، طاجيكستان، وتقع إلى شرق بحر قزوين وتبلغ مساحتها ٩٠,٠٠٠كم٢ ، وتضم ٦٤,٨٪ من مجموع المسلمين فى الاتحاد السوفيتى .

إقليم القوقاز :

ويشمل جمهورية : أذربيجان الاتحادية ، وجمهوريات وأقاليم ذات استقلال ذاتى فى جمهوريتى أرمينيا وجورجيا ، والجمهوريات المستقلة ذاتيا فى روسيا الاتحادية ، وتقع جميعا عبر مرتفعات القوقاز ، وتبلغ مساحة الأراضى التى يشغلها المسلمون حوالى أربعة ملايين كيلو متر مربع .

وإلى جانب الإقليمين السابقين ينتشر المسلمون فى مناطق متعددة من جمهورية روسيا الاتحادية، فهناك المسلمون فى وادى الفولجا الأوسط فى بشكيريا وتتاريا والشوفاش، وعند مصب نهر الفولجا يصعب تحديد مساحتها بدقة، وتبلغ تقريبا

---

(١) فهمى هويدى : «هل نعلن موت الأمة ؟ » مقال بجريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٩٩م .

٢,١مليون كم٢ ، وتضم حوالى ٩,١٤٪ من مجموع المسلمين فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق [1] .

(١) المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز ص ٤٢ ـ٤٥ .

الفصل الرابع

الإسلام فى شرق أوربا زمن العثمانيين

الإسلام فى شرق أوربا زمن العثمانيين

الطابع الجهادى للدولة العثمانية :

قيض الله للدولة العثمانية أن تحمل لواء الجهاد الإسلامي فى شرق أوربا إبان القرن السابع الهجرى، ولم يكد القرن العاشر ينتصف حتى دانت كل أمصار أوربا الشرقية لسطوة العثمانيين ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة شبه إسلامية بعد أن كان مركزاً للحضارة الهلينية ، وارتفع المد الإسلامى فى ظل هذه الدولة ، وبلغ حداً لم يبلغه من قبل فى أى حقبة من أحقاب التاريخ الإسلامى تقريباً .

وقد حقق الأتراك العثمانيون آمال الفتح التى استشهد فى سبيلها المسلمون الأوائل ، على رأسهم الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ﵁ (١) ، وكادت الأندلس تعود إسلامية لولا أن أطلت الفتنة الفارسية الصفوية الشيعية برأسها ، وتشاغل بها سلاطين العثمانيين ، وانهمكوا فيها وفى مضاعفاتها متخلين عن ميدان الجهاد الحقيقى وهو الاتجاه غرباً نحو البلقان وشرق أوربا ، فتخف وتيرة الجهاد لذلك، ويتحول المد الإسلامى إلى جزر وينحسر الإسلام عن أوربا برمتها ، ولم يبق من المسلمين سوى بقايا تذكارية لذلك العهد الزاهر الماجد فى بلاد البلقان .

ومما يرشح صدق نية العثمانيين فى الجهاد وفى شرق أوربا ما يلى :

١ـ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت بالتزام الشرع الشريف، ومشاورة أهله والجهاد فى سبيل الله .

٢ـ حين استقل أورخان وضرب السكة سنة (٧٢٧هـ) حرص على أن تكون إعلاناً رسميّاس عن إسلامية الدولة ؛ إذ كتب أحد وجهيها : «لا إله إلا

---

(١) المقصود هنا فتح القسطنطينية ، انظر حول محاولات المسلمين عبر تاريخهم فى هذا الشأن مثلا : د. إبراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٤ وما بعدها ، الأمويون والبيزنطيون ص ١٣٤ ـ ١٦٧ ، د . عبد الشافى عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص ٢٤١ وما بعدها .

الله محمد رسول الله » تحيط بها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، وعلى الوجه الآخر اسم أورخان.

٣ـ حرص أورخان على اصطحاب القضاة والمفتين فى ركابه يستفتيهم فى كل أمر ويقضون بين الناس بالشرع . وقد ظل منصب قاضى عسكر من المناصب المرموقة طوال الحكم العثمانى ، وكذا منصب المفتى .

٤ـ التخلق بالأخلاق الإسلامية والتزام المبادئ الشرعية السمحة ، فكان لسياستهم العادلة وتسامحهم الدينى أبعد الأثر فى إقبال الأعداء من النصارى على الدخول فى الإسلام وعلى الخدمة فى الجيوش العثمانية (١).

لقد قامت الدولة العثمانية فى دار حرب ، وتمرس أهلوها على غزو أراضى الدولة البيزنطية العتيدة ؛ ولذا لم يكن بمستغرب أن تطل دولتهم راية الجهاد، فوضعوا نصب أعينهم ـ من البداية ـ التوسع على حساب الأراضى البيزنطية، وليس على حساب جيرانهم من الإمارات التركية الأخرى رغم ضعفها إلا حين ناوشتهم هذه الإمارات وضربتهم من الخلف بتأليب من القوى الأخرى فى الشرق الإسلامى المبغضة لنجاحهم وفتوحاتهم وصيتهم فى العالم الإسلامى كالصفويين وغيرهم .

كانت الأوضاع السياسية فى شبه جزيرة البلقان من العوامل المساعدة للعثمانيين على فتوحاتهم فيه ، إذ كان من بين القوى السياسية الحاكمة آنذاك ما يعيش طور الاحتضار مثل بيزنطة، أو تعيش فى صراع مرير كالحال بين الصرب والبلغار أو كلاهما مع بيزنطة، أو بين دول البلقان قاطبة والمجر التى كان ملكها لودفيج الكبير (١٣٤٢ ـ ١٣٨٢م) يسعى جاهداً لنشر المذهب الكاثوليكى بالقوة. فإذا أضفنا إلى كل هاته الصراعات صراعاً أكثر شمولاً وهو الصراع التقليدى بين الكنيستين الشرقية فى القسطنطينية ، والغربية فى روما ، أدركنا إلى أى مدى كان البلقان فى أتون مستعمرة ، بيد أن هذه الصراعات لم تكن لتحول دون تجمع هذه

(١) د . هريدى : الحروب العثمانية الفارسية ص ١٨ ، ١٩ .

القوى المتناحرة لتكون جبهة واحدة كلما دعا داعى الحرب ضد العثمانيين (١) .

الفتح العثمانى للبلقان وشرق أوربا :

اتسم عهد أورخان بالتسامح الدينى الكامل ، الأمر الذى يفسر إلى حد كبير تحول العثمانيين إلى دولة قوية ، لما لها من حدود واضحة وقوانين تضمن استقرارها ، فلم يحاول أورخان فرض الإسلام على رعاياه غير المسلمين ، بل لجأ إلى الحث على اعتناقه بطريق غير مباشر، ذلك أن كثيراً من معاونيه كانوا من سلالة سكان الأناضول الأقدمين، كما كانت دولته بحاجة إلى إدماج جزئى للبيزنطيين، وباتساع أملاكه رأى ضرورة إيجاد تمييز آخر بين المسلم والنصرانى غير التمييز الدينى، ومن ثم وجب عليه أن يجتذب النصارى ، وبخاصة فئاتهم العليا، بحيث يميلون إلى الإسلام نظير مزايا معينة .

حل أورخان هذه المشكلة بتوفير نظام للمكافآت على الخدمة العسكرية ثم بقصرها على المسلمين ، وأعلن أن جزءاً كبيراً من الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها خارج المدن سيوزع على الجنود الذين اشتركوا فى القتال ، بشرط أن يقوم شاغلوها بالوفاء بحاجات الخدمة العسكرية، سواء بأن يرسلوا إلى ميادين القتال عدداً من الرجال يتناسبون مع مساحة الأرض التى يشغلونها، أو بأن يدفعوا مبالغ تكفى للإنفاق على قوات بديلة. وتبنى كذلك سياسة إعفاء النصارى من الخدمة العسكرية مقابل دفع الجزية التى خصصت حصيلتها للإنفاق على القوات المسلحة.

وليس من الصواب فى شىء القول بأن الجزية وحدها كانت مسؤولة عن اعتناق بعض نصارى الدولة للإسلام ،فدخول النصرانى الإسلام يحمله أعباء مالية منها : الزكاة بأنواعها وهى أكثر بكثير من الجزية، بل إن دخول النصارى الإسلام كان بسبب ما تميزت به الإدارة العثمانية من كفاءة فضلاً عن الصفات الممتازة التى تحلى بها القائمون على شؤون الدولة فى النواحى الاجتماعية والذهنية والأخلاقية لا العسكرية فحسب ، وبسبب تمسكهم بدينهم،ثم بسبب الاهتمام الكبير بالعلماء

(١) د . هريدى : الحروب العثمانية الفارسية ص ٢٤ .

والمعلمين ، والإكثار من بناء المدارس والكليات فى كل مدينة وقرية [1] .

فى عهد السلطان الغازى مراد خان الأول فتح البكلر [2] «لاله شاهين» مدينة أدرنة [3] سنة(١٣٦١م)، سلمها قائدها الرومى بعد قتال يسير لما داخله من اليأس من إنقاذها. ولأهمية موقعها الجغرافى ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر، نقل إليها السلطان تخت الدولة العثمانية، واستمرت عاصمة لها، واستمرت عاصمة إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية سنة (١٤٥٣م).

كما فتحت مناطق أخرى على الخط نفسه، وبذلك صارت مدينة القسطنطينية محوطة من جهة أوربا بأملاك آل عثمان، وفصلت عن باقى الإمارات النصرانية الصغيرة التى كانت شبه جزيرة البلقان مجزأة بينها ، وصارت الدولة العلية متاخمة لإمارت الصرب والبلغار وألبانيا المستقلة .

فاضطرب لذلك الملوك النصارى المجاورون للدولة العثمانية، وطلبوا من البابا أوربان الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوربا الغربيين ليساعدوهم على محاربة المسلمين وإخراجهم من أوربا خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان، إذ لو اجتازوها بدون معارضة ومقاومة فى مضايقها، لم يقو أحد بعد ذلك على مقاومة تيار فتوحاتهم ويخشى بعدها على جميع ممالك أوربا من العثمانيين . فلبى البابا استغاثتهم ، وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المسلمين وحرضهم على محاربتهم محاربة دينية ؛ حفظاً للدين المسيحى من الفتوحات الإسلامية .

وفى عام (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م) وبتحريض من البابا أوربان الخامس تكون تحالف تحت رئاسة لايوش الأول ملك المجر من كل من: أورروش الخامس ملك الصرب

---

(١) د . العيارى : تاريخ الشرق الإسلامى ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) بكلر بك : أعلى طبقة فى رتبة باشا ، وهو الوزير أو حاكم البوسنة ، انظر: المعجم التوضيحى ص٣٠٦ من كتاب مالكوم: البوسنة .

(٣) أدرنة : واسمها بالرومية أدريانا بوليس نسبة للإمبراطور أدريان الرومى ، الذى أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت إطلاق اسمه عليها ، وتوفى هذا الإمبراطور سنة ١٣٨ م . انظر : محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية ص ٤٤ هامش (٢) .

وتفرتكو ملك البوسنة والأمير باساراب والأمير لايكون من الأمراء الرومانيين لمحاربة المسلمين العثمانيين . ففاجأهم بهجوم ليلى خاطف الحاج إيل بك البطل العثمانى الكبير بجوار أدرنة ، وانتصر عليهم نصراً مؤزراً فى معركة تعرف فى المصادر العثمانية باسم «صنديقية الصرب» أو صرب صنديقى .

أمن هذا النصر المؤزر مستقبل الحكم العثمانى الإسلامى فى البلقان، وكانت هذه هى المعركة الأولى التى يشترك فيها ملك البوسنة النصرانية ضد القوات العثمانية المسلمة ، وتوالت بعد ذلك على العثمانيين السفارات والوفود الأوربية عارضة الصداقة وعدم الاعتداء ودفع الجزية . وكلما نقض الجانب النصرانى وعداً قطعه على نفسه فى هذه الاتفاقات حاربه العثمانيون ، وكانت كل حرب من هذه الحروب تعنى مزيداً من التوسع الإسلامى فى البلقان ، حتى وصل العثمانيون إلى صوفيا عاصمة البلقان، وحاصروها وسقطت فى أيديهم بعد ثلاث سنوات (١) .

وفى عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م)،قام ملك الصرب المدعو لازار كربليا نوفتش بالتحالف مع بعض أمراء آسيا الصغرى المسلمين المناوئين للعثمانيين . وكان لازار الصربى هذا قد خضع للسلطات العثمانية ، ودفع الخراج لها سنة (١٣٧٢م، ٧٧٤هـ)، وكان لازار مجبراً على تجديد معاهدة التبعية للعثمانيين تحت ظروف أشد وطأة من سابقتها ،إلا أنه لم ينس قط فى أى وقت من الأوقات عداءه للمسلمين العثمانيين .

وفى عام (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) أدرك صقالبة الصرب والبوسنة أنهم فى خطر لاقتراب الحدود العثمانية، وظهرت فى الأفق فكرة المقاومة المشتركة التى ينبغى على الصرب والبوسنة تنفيذها ضد العثمانيين، وقد استفاد لازار من هذه الروح ، واتحد مع تفرتكو ملك البوسنة ، ونجح الطرفان فى جمع جيش صربى بوسنى من ٣٠,٠٠٠ شخص تحت قيادتهما .

---

(١) انظر فى ذلك : د. محمد حرب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ، نشر المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى ، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ص٧ ،٨،محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ٤٤، ٤٥، د. هريدى :الحروب العثمانية الفارسية ص ٢٤ ،٢٥ .

في هذه الأثناء بدأ جيش عثماني في التقدم، واستولى على البوسنة ، وكان عدد جنوده وضباطه حوالى ٢٠,٠٠٠. وفى هجوم مباغت أخذ جيش التحالف النصرانى زمام المبادرة ضد العثمانيين فى موقعة عرفت باسم«بلوشنيك»وهزم العثمانيون واستشهد فى الوقعة ١٥,٠٠٠مسلم عثمانى . وكان جيش التحالف يضم جنوداً من البلغار والأرناؤوط (الألبان)،وكان شيشمان ملك البلغار موجوداً فى المعركة .

قدم النصر فى بلوشنيك روحاً معنوية جديدة للقومية الصقلبية فى البلقان ، بعد أن كانت معنوياتها قد انحطت تحت ضربات العثمانيين منذ عدة سنوات ، وبعد أن أصاب الرعب السلاف (الصقالبة) فى البلقان.وتسببت هذه الواقعة فى قيام الاتحاد السلافى للعناصر الصربية والبلغارية والبوشناقية (البوسنوية) ، بل فى التحاق بعض الأمراء الأرناؤوط (الألبان) بهذا الاتحاد .

كان غرض هذا التحالف طرد العثمانيين تماماً من البلقان، وهذا هو الشعور العام الذى أيقظه هذا الظفر فى نفوس صقالبة البلقان ، وقد اتخذ السلطان العثمانى مراد الأول تجاه هذا الأمر تدبيرين مختلفين عسكرى وسياسى،السياسى يتمثل فى جذب بعض أمراء الألبان والصرب للتحلل من هذا الحلف وضمهم إليه،والعسكرى هو قيام وزيره الأعظم جاندارلى على باشا بالاستيلاء على بلغارية لتفويت الفرصة على اتحاد الجيوش البلغارية والصربية، وبالفعل استولى الوزير على مدينة طير نوفا عاصمة بلغاريا فى ذلك الوقت.وهرب منها ملكها شيشمان، وانسحب حتى نهر الطونة (الدانوب) ودخل قلعة نى بولى (نيكبولى) (١) وأغلقها عليه.

أثناء ذلك توجه السلطان مراد الأول إلى نيبولى،فأعلن شيشمان انقياده له وتعهد بدفع الخراج المتأخر وتسليم عدة قلاع،ولكن بمجرد شروع السلطان مراد فى العودة تمرد من جديد وانتهى تمرده بنكبة على بلغاريا. فقد استولى العثمانيون على معظم بلاده وسلم الملك وزوجته نفسيهما دون قيد أو شرط،وسيقا لمقر قيادة

---

(١) اسمها بالرومية نيكوبوليس ومعناها :مدينة النصر ، أسسها الإمبراطور الرومانى تراجانوس (ت سنة١١٧م) انظر : محمد فريد : الدولة العلية ص ٤٧ هامش (٢) .

الجيش العثمانى لعرضهما على السلطان ، وبذلك أصبح وسط بلغاريا كله تحت الحكم العثمانى، ومعنى هذا إنزال ضربة كبيرة بالتحالف البلقانى الذى اشتركت فيه كل من الصرب وبلغاريا ورمانيا والبوسنة وقطاع من ألبانيا. ولم يوقع العثمانيون أى حكم جزائى على شيشمان، فأعلن تبعيته للدولة العثمانية، وأصبح بمثابة وال عثمانى على بلغاريا، وقدم أخته تمارا إلى السلطان مراد فتزوجها (١) .

بعدها اصطدم الطرفان؛ العثمانى بقيادة السلطان مراد الأول والتحالف النصرانى بقيادة لازار ملك الصرب فى وقعة قوصوة (٢) (كوسوفا) الشهيرة فى ٤ رمضان سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م)، كان الصرب وحلفاؤهم فى مائة ألف محارب والعثمانيون فى ستين ألفاً، ودار صراع مرير استبسل فيه الجانبان، وكان يبدو فى بادئ الأمر أن الغلبة ستكون من نصيب الجانب الصربى ، ولكن الأتراك شنوا هجوماً على الصرب بقوة كبيرة وأجبروهم على التقهقر وأسر لازار وضربت عنقه .

تجلت الموقعة عن انتصار المسلمين ، إلا أنها انتهت باستشهاد السلطان مراد الأول بعد انتصاره؛ إذ إنه حين تفقده لأرض المعركة بعد انتهائها طعنه جريح صربى بخنجر مسموم فتوفى إثر الطعنة، وكان هذا القاتل الصربى يدعى ميلوش كابيلوفيتش ، ويقال : إنه كان صهراً للازار ، وقد حاول الهرب ولكن قبض عليه وقتل .وقد أقام له الصرب بعد ذلك تذكاراً حجرياً فى المكان الذى طعن فيه السلطان وآخر فى المكان الذى قبض عليه فيه بعد محاولته الهرب ، وقد نتج عن المعركة انتهاء استقلال مملكة الصرب تماماً طوال عهود قوة الدولة العثمانية، وقد مهد السلطان مراد الأول لأولاده وأحفاده بهذا الظفر الطريق لإكمال الفتوحات العثمانية فى البلقان ، وبلغ من طيب اسمه فى عالم الإسلام أن أرسل برقوق سلطان المماليك بمصر إلى قبره فى بورصة شمعداناً قيماً وإناءً وأوقف مصحفاً عليه (٣) .

---

(١) د . حرب : البوسنة ص ١١ ـ ١٤ .

(٢) غرب بريشتينا عاصمة الإقليم الآن .

(٣) مالكوم : البوسنة ص ٤٤ وما بعدها ، نوريس : الإسلام فى البلقان ص ٢٦٥ وما بعدها .

ابتدأ السلطان بايزيد الأول أعماله بأن ولى الأمير أسطفن بن لازار ملك الصرب حاكماً عليهم وتزوج أخته أوليفيرا ، وأجازه أن يحكم بلاده على حسب قوانينهم بشرط دفع جزية معينة،وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب. فعل ذلك ولم يضم بلاد الصرب إلى أملاكه ويجعلها ولاية عثمانية كباقى الولايات ليسكن بال الصربيين حتى لا يكونوا شغلاً شاغلاً له نظراً لشهامتهم وحبهم الاستقلال .

ثم حارب أمانويل باليولوج ملك الروم وحاصره فى القسطنطينية،وبعد أن ضيق عليه الحصار ترك حولها جيشاً جراراً،وأثناء هذا الحصار ضم السلطان بلاد البلغار إلى الأملاك العثمانية بعد أن قتل أميرها شيشمان، وأسلم ابنه وعين حاكماً عليها سنة (١٣٩٤م)، فلما علم سجسمون ملك المجر خبر ما حل ببلاد البلغار خشى على مملكته؛ إذ صار متاخماً فى عدة نقاط للدولة العثمانية. فاستنجد بأوربا وساعده البابا فأمده ملوك فرنسا وألمانيا ، واجتاز بجيشه نهر الدانوب ، وعسكر حول نيكوبلى لمحاصرتها،فسار إليهم السلطان بايزيد ومعه مائتا ألف مقاتل ضمنهم كثير من الصرب تحت قيادة أميرهم أسطفن بن لازار وغيرهم من الأمم النصرانية الخاضعة لسلطان العثمانيين ، وقاتلهم قتالاً شديداً سنة (٧٩٨هـ / ١٣٩٦م) ، وانتصر عليهم،وأسر كثيرين من أشرافهم ، وقتل أكثر ، وأطلق الباقين بعد دفع فدية اتفق على مقدارها .

وكانت الأسباب الظاهرة فى انتصار المسلمين تكمن فى أن السلطان بايزيد الأول قائد الجيوش العثمانية، باغت الجيوش الأوربية فى وقت لم تكن تتوقع وصوله إليها ،نظراً للسرعة التى فاقت الحد الطبيعى لسرعة الجيوش فى ذلك الوقت . فدمر بشكل قاطع ، وحاكم فرق الجيش المجرى أقوى جيوش هذا التحالف الصليبى، ولما فرت جنود الصليبيين عبر نهر الدانوب ، فوجئت بقوات المغيرين المسلمين ـ بمثابة فرق استطلاع عثمانية ـ تتصدى لها،تعمل فيهم السيوف. وأسرت القوات العثمانية فى هذه الموقعة الحاسمة فى تاريخ المسلمين وتاريخ أوربا

أيضاً أعداداً هائلة من الأسرى الصليبيين، وفى مقدمتهم الكثير من الأمراء الفرنسيين وقادتهم العسكريين، وقد أرسلوا إلى العاصمة العثمانية وأطلق سراحهم فيما بعد فى مقابل فدية ضخمة.

ويقال: إن السلطان بايزيد ـ الذى عرف فى التاريخ بالصاعقة ـ قد أطلق عقب هذه الملحمة ـ التى عرفت فى التاريخ بموقعة نى بولى ـ سراح الكونت دى نيفر أحد الأمراء الأوربيين، وكان قد ألزم نفسه بالقسم على ألا يعود لمحاربة السلطان، فقال له السلطان : إنى أجيز لك ألا تحفظ هذا اليمين فأنت فى حل للرجوع لمحاربتى ، إذ لا شىء أحب إلى من محاربة جميع نصارى أوربا والانتصار عليهم. ثم شدد الحصار على مدينة القسطنطينية ، ولولا إغارة تيمور لنك على بلاده لتمكن من فتحها، لكن الأمور مرهونة بأوقاتها، فاكتفى بإبرام الصلح مع ملكها بشرط دفع عشرة آلاف عملة ذهبية سنويا، وأن يجيز للمسلمين أن يبنوا بها جامعاً لإقامة شعائر الدين الحنيف، وأن تقام لهم محكمة شرعية لنظر قضايا المستوطنين بها منهم .

فى عهد السلطان محمد الفاتح حوصرت القسطنطينية من جهة البر بجيش يبلغ ربع مليون جندى ، ومن جهة البحر بمائة وثمانية سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية وضع بها مدافع جسيمة كانت تقذف كرات من الحجر زنة الواحدة اثنا عشر قنطاراً إلى مسافة ميل، وأخذ السلطان يفكر فى طريقة لدخول مراكبه إلى المينا لإتمام الحصار براً وبحراً، فخطر بباله فكرة تتيح له تجاوز السلاسل الحديدية التى كانت تحول بين سفنه وبين دخول المينا لإتمام الحصار، وهى أن ينقل المراكب إلى البر ، ثم يعيدها إلى الماء بعد تجاوز السلاسل ، فمهد طريقاً فى البر طوله حوالى ستة أميال، ورصف فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لتسهيل انزلاق المراكب عليها، وبهذه الطريقة أمكن نقل نحو سبعين سفينة فى ليلة واحدة، حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من انتصار العثمانيين عليهم .

لكن عزائم المحصورين لم تخمد، بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع

عن مدينتهم. وفى يوم ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، الموافق ٢٤ مايو سنة ١٤٥٣م أرسل السلطان محمد إلى قسطنطين إمبراطور البيزنطيين يخبره أنه لو سلم البلد إليه طوعاً فإنه يتعهد له بعدم مس حرية الأهالى أو أملاكهم، وأن يعطيه جزيرة مورة، فلم يقبل قسطنطين ذلك ، بل آثر الموت على تسليم المدينة، عند ذلك نبه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم يوم ٢٠ جمادى ، ووعدهم بالمكافأة عند تمام النصر . وفى الليلة السابقة لليوم المحدد أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها للاحتفال بالنصر المحقق لديهم ـ بإذن الله ـ وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبرون، حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم. فهجم مائة وخمسون ألف جندى وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج، وأعملوا السيف فيمن عارضهم ، وقاتل الإمبراطور حتى الموت .

دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء فساد الأمن ، ثم زار كنسية أيا صوفيا وأمر أن يؤذن فيها للصلاة إعلانًا بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين ، وبعد تمام الفتح أعلن فى الجهات كافة بأنه لا يعارض فى إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم ، فرجع من هاجر من النصارى ، وأعطاهم نصف الكنائس ، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين، ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروه وأقام له حفلاً مهيباً ، ووفر له حرسا من الانكشارية، ومنحه حق الحكم فى القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها بين أهل ملته، وعين معه فى ذلك مجلساً مشكلا من أكبر موظفى الكنيسة ، وأعطى هذا الحق فى الولايات للمطارنة والقسوس ، وفى مقابل هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنيًا من ذلك أئمة الدين فقط (١) .

ولا شك أنه كان من أهم عوامل الإصرار على تحقيق النصر فى هذه الموقعة الفاصلة فى التاريخ : المحرك الإيمانى لدى زمرة الفاتحين ، وإخلاصهم الجهاد فى سبيل الله ، وقد صور هذا أمير الشعراء أحمد شوقى فقال :

---

(١) محمد فريد بك : الدولة العلية ص ٥٩ ـ ٦١ .

قد جاءها الفاتح فى عصبة　　من الأسود الركع السجد

رمى بهم بنيـــانها مثلـــما　　يصطدم الجلمد بالجلمــد

ومما يؤكد قول السلطان محمد الفاتح فى رسالة لشريف مكة يبشره بالفتح :

«فازدحم أهل الإسلام ، وجاهد كل المجاهدين من البر والبحر حق الجهاد، فقربوا من السور، وصعد جمع كبير الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المترسة من المنجنيق، فدخلوا فى نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل» .

ثم طلب السلطان دعاء العلماء وفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة وكل الحجيج فى عرفات ، ويصف فى رسالته لسلطان المماليك فى مصر كيف كان حال جنوده الموحدين فى ساحة الوغى فيقول: «وانتهينا إلى ما أشار إليه من مسيره على القسطنطينية العظمى بعساكره الإسلامية وجنوده المحمدين، فكانوا لها أصفاداً وزلزلوا أرضها بجياد خيل وقفت صابرة فكانت أوتاداً ، وهبت نسمات النصر على جيوشه فقيل: يا خيل الله اركبى،ويا يد النصر اكتبى » (١) .

وقد كان لهذا النصر وذلك الفتح المبين من الآثار العسكرية والسياسية والاقتصادية ما جعل المؤرخين يعدونه نقطة تحول فى مجرى تاريخ العالم، ووضعه مؤرخو أوربا حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والعصور الحديثة، وما يعنينا هنا هو أثره فى انتشار الإسلام . والفتح العسكرى فى حد ذاته لا يمكن أن يؤتى ثماره، إلا إذا أعقبته سياسة حكيمة تقوم على الترغيب لا الترهيب، وهذا ما صنعه محمد الفاتح، فقد أعلن عن حرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية التملك وضمان حقوق الملكية. واستدعى كما ذكرنا القساوسة وأمرهم بانتخاب رئيس لهم يتولى شؤونهم الدينية فانتخبوا أحد القساوسة الفارين من اضطهاد الأباطرة السابقين، وكان مختبئاً فى إحدى بقاع البلقان فاستحضره لهم ، وكان لهذه السياسة أثرها فى عودة من هجر المدينة منذ عهد الأباطرة، وعاد معظمهم ليعلن إسلامه، وشهدت السنوات التالية للفتح عمليات إشهار إسلام جماعية تحدث لأول مرة فى العهد العثمانى ،

(١) هريدى : الحروب العثمانية ص ٣٣ ، ٣٤ .

حين جاء بعض أهالى البوسنة إلى السلطان الفاتح ليعلنوا إسلامهم ورغبتهم فى العمل فى خدمة الدولة. فسر السلطان بذلك وألحقهم بخدمة الجيش ، وظل هؤلاء البوسنيون على ولائهم للدولة حتى النهاية (١) .

وفى عام (٨٦٧هـ / ١٤٦٣م) استعد السلطان محمد الفاتح لحملته على البوسنة ، وكانت قواته لفتح البوسنة مكونة من ١٥٠ ألف شخص ، فسار إليها خلال شهرى شعبان ورمضان ، وفتح قلعة « ياى تشا » وكانت عاصمة هذه المملكة ، ثم قدمت المدن المهمة الأخرى مفاتيحها للسلطان محمد الفاتح ، وبعضها الآخر قاوم مقاومة بسيطة لا تذكر ، ولكن الجميع سلم للعثمانيين .

لجأ آخر ملوك البوسنة إلى قلعة كلوتز وسلمت أيضاً هذه القلعة، وأعدم فيها ملك البوسنة بناء على فتوى مستندة إلى عده أسباب :

أولها : أنه حبس رسل الفاتح الذين أرسلهم إليه لطلب الخراج .

وثانيها : دوره في تحريض القوى الصليبية ضد العثمانيين .

وثالثها : وقوفه ضد العثمانيين أثناء غزوهم لبلاد الصرب ، والمعروف أن ملك البوسنة كان من أشد المعادين للعثمانيين فى أوربا .

كانت البوسنة منذ القرن السابع الميلادى مملكة مستقلة ،وإن أصابها بعض التجاوزات ، إلا أنها بعد فتح الفاتح لها أصبحت ولاية عثمانية ومنذ هذا التاريخ والبوشناق قد اهتدوا إلى الإسلام فى زمن قليل وخرجوا من كونهم ذميين .

وكان الفاتح بعد فتح بلاد البوشناق (البوسنة) قد أعلن أنه لا إكراه فى الدين ، فارتاح اليوغوميليون مذهب أهل البوسنة فى نصرانيتهم من اضطهاد الكنيستين الشرقية والغربية ،وافتتح البوشناق عهداً جديداً ، وأخذوا يشيدون فيه المدن لأول مرة ويعطونها طابعاً إسلامياً بمساجدها ومدارسها وأسواقها،وأهم هذه المدن « سراييفو » أو بوشناق سراى ، أو بوسنة سراى ، وكلها أسماء للعاصمة

---

(١) هريدى : الحروب العثمانية ص ٣٥ .

البوسنوية أصحها إسلامياً الاسم الذى أطلقه السلطان الفاتح عليها وهو «سراى بوسنة » ،نسبة إلى القصر أو السراى الذى ابتناه ليكون مقراً للحكومة على نهر البوسنة، وأذن السلطان محمد الفاتح للكاثوليك خارج الدولة العثمانية بالقدوم لتعمير الأراضى المهجورة، وذلك فى بيان مشهور باسم عهد نامه (١) ولولا ذلك الإذن لما كان فى بلاد البوسنة غير المسلمين .

وفى العام نفسه فتح الوزير الأعظم محمود باشا بعض القلاع ، وعلى ذلك قدم دوق الهرسك ستيفان قصاريتش ابنه الصغير رهينة للدلالة على انقياده لأوامر العثمانيين؛ لذلك تركه العثمانيون فى مكانه،وعين ابنه هذا فى معية السلطان الفاتح فأسلم، وأسمى نفسه أحمد، ثم حاكما للهرسك (٢) تحت لقب أحمد باشا ،وأصهر للأسرة العثمانية الحاكمة، ثم أصبح وزيراً أعظم بعد ذلك .

بدأ العثمانيون يجنون ثمار انتصاراتهم العسكرية والسياسية تجاه الدول الأوربية، وقد ظهرت بواكير هذا الثمار فى عهد بايزيد الثانى(٨٨٦ ـ ٩١٨هـ) الذى تميز عهده ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوربا ، لكن جنوح العثمانيين إلى السلم كان مرتبطاً بالتزام الطرف الآخر؛ لذا لم تكن هذه الاتفاقيات تمنعهم من القيام بتأديب البنادقة على سواحل البلقان مثلاً عند أول بادرة اعتداء أو تمرد.

بلغت الإمبراطورية العثمانية أوج اتساعها وقوتها فى عهد السلطان سليمان القانونى(٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) . فبتوجيه وقيادة وهمة هذا السلطان العظيم ـ بعد مشيئة الله بالطبع ـ أمكن ضم العالم اليونانى إلى العالم العربى، وامتدت أملاك السلطان من قلب المجر وجنوب روسيا فى الشمال إلى الخليج العربى والسودان جنوبًا ،ومن بحر قزوين وفارس فى الشرق إلى وهران بالجزائر ، غرباً هذا فى الوقت الذى أضحى فيه البحر المتوسط بحيرة عثمانية، وكانت الإمبرطورية مهيبة الجانب يحسب لها ألف حساب فى أوربا .

---

(١) نامه : فارسية بمعنى كتاب أو رسالة .

(٢) هرسك : هرسكوفين،لقب يطلق على هذه الحكومة الصغيرة ،والتى تسمى أيضاً دوقية سانت ساباس ، وهذا الاسم محرف عن كلمة هرزو كثام بمعني دوقية فى اللغة الألمانية .د. حرب :البوسنة ٢٤، ٢٥ .

فى الوقت الذى اتصف فيه عائلها بالذكاء والتعقل والكرم والعدل، وأجرى كثيراً من الإصلاحات المهمة، وأصدر كثيراً من المجموعات القانونية (قانون نامات) واهتم بتطبيق القانون فى شتى ربوع دولته، وأنشأ كثيراً من المدارس والكليات، وشيد مبانى فخمة زين بها الأستانة (استانبول) وبغداد وقوينة ودمشق وغيرها من المدن، وبرز فى عهده عدد كبير من المؤرخين والشعراء والكتاب ورجال القانون والعلم، خاصة وأن السلطان ذاته كان يرعى العلم والآداب (١) .

ومن أبرز انتصارات المسلمين فى عهد هذا السلطان انتصاراتهم فى موقعة موهاج (موهاتش) (٩٣٢هـ - ١٥٢٦م) ، فقد سافر السلطان سليمان القانونى من استانبول لمحاربة المجريين الذين كانت الحرب غير منقطعة بينهم وبين العثمانيين على الحدود . وكان الجيش العثمانى مؤلفاً من نحو مائة ألف جندى و ٣٠٠ مدفع و ٨٠٠ سفينة فى نهر الدانوب لنقل الجنود من بر إلى آخر . وسار هذا الجيش تحت قيادة السلطان ووزرائه ورجاله إلى بلاد المجر عن طريق الصرب ، مارين بقلعة بلجراد التى جعلت قاعدة لأعمالهم الحربية، وبعد أن افتتح الجيش عدة قلاع ذات أهمية حربية على نهر الدانوب بأجمعه إلى وادى موهاج - فى المجر الآن - فى ٢٠ ذى القعدة ٩٣٢هـ / ٢٨ أغسطس ١٥٢٦م .

فى اليوم التالى اصطفت الجنود العثمانية ثلاثة صفوف، وكان السلطان ومعه كافة المدافع وفرق الانكشارية فى الصف الثالث ، فهجم فرسان المجر المشهورون بالشجاعة والبسالة تحت قيادة ملكهم لويس على الصفوف الأولى للعساكر العثمانية ، فتقهقر أمامهم العثمانيون وراء المدافع، ولما وصل فرسان المجر بالقرب من المدافع أمر السلطان بإطلاقها عليهم فأطلقت تباعا، وتتالى إطلاقها بسرعة غريبة أوقعت الرعب فى قلوب المجريين فأخذوا فى التقهقر تتبعهم العساكر المظفرة حتى قتل أغلبهم وقتل ملكهم ولم يعثر على جثته .

فكانت هذه الواقعة سبب ضياع استقلال بلاد المجر بأسرها، لعدم وجود جيش

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى: السلطانة الروسية فى البلاط العثمانى، مجلة العربى الكويتية ، العدد (٢٨٣) شعبان ١٤٠٢هـ / يونيو ١٩٨٢ ص ٩٠ .

آخر يقاوم العثمانيين فى سيرهم،ولحصول الفوضى فى البلاد بسبب موت ملكهم؛ ولذلك أرسل أهالى مدينة بود عاصمة المجر مفاتيح المدينة إلى السلطان ، فتسلمها وسار يحف به النصر ويحدوه الجلال ، حتى وصل إلى مدينة بود ودخلها فى ١٠سبتمبر ١٥٢٦م ، فشدد الأوامر على الجنود بعدم التعرض للأهالى والمحافظة على النظام (١) .

ومن أعماله الجليلة أيضاً فتحه جزيرة رودس بالبحر المتوسط ، التى استعد لها براً وبحراً استعداداً كافياً؛ نظراً لأنها استعصت على السلاطين أسلافه لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر ، ولكى لا يكون للنصارى مركز حصين فى وسط بلاده تلجأ إليه أساطيل الدول المعادية للدولة فى وقت الحرب ، وساعده على ذلك انشغال ملوك أوربا عن إنجاد أهل الجزيرة فى ذلك الوقت بمشاكلهم وشؤونهم الخاصة .

أرسل السلطان قبل الشروع فى الحرب إلى رئيس رهبان الجزيرة كتاباً يعرض عليه إخلاء الجزيرة ، والانسحاب منها بكل من معه من النصارى الذين يؤثرون الهجرة على البقاء متعهداً لهم بعدم التعرض لأنفسهم وأموالهم . ولما لم يقبل رئيسهم هذا الاقتراح أمر السلطان الأسطول بالإقلاع قاصدا الجزيرة ، وأرسلت إلى البر مدافع الحصار والمؤونة والذخائر ، ووصل إليها السلطان ، وبمجرد وصوله ابتدأ الحصار الشديد ودافع من بها دفاع الأبطال خصوصاً الرهبان ، ويقال : إن النساء كانت تساعد الرجال فى الدفاع بإلقاء الأحجار على المحاصرين ، وصب الزيوت الحارة على رؤوسهم ،لكن كل ذلك لم يجد شيئاً أمام المدافع العثمانية .

ولما أعيت الحيل رئيس الرهبان ونفذت مؤونته وذخائره،أرسل اثنين من رهبانه إلى السلطان يطلب منه السماح لهم بإخلاء الجزيرة خلال اثنى عشر يوماً بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها، حتى لايحصل للمحصورين ضرر عند خروجهم قبل السلطان ذلك،لكن فريقاً من الانكشارية دخل المدينة رغم أوامره،واحتلوا المدينة،وارتكبوا القبائح فغضب

---

(١) د . حرب : البوسنة ص ٣٧ ، ٣٨ .

السلطان وأمر بمراعاة شروط التسليم، وعاقب المفسدين فعاد الأمن وسادت السكينة، وفى اليوم الثانى قابل السلطان رئيس الرهبنة وأنعم عليه بخلعة سنية(١).

على أن عهد السلطان سليمان قد شهد مقدمات ضعف الدولة العثمانية ، من ذلك أن الانكشارية كانوا لا يخرجون إلى الحرب إلا إذا كان السلطان معهم يقودهم ؛ ولذا كانت أهم الحروب والفتوحات تحت إمرة السلطان فغير سليمان هذه السنة الحميدة وأجار للانشكارية الخروج للحرب أحياناً تحت إمرة قائدهم الأكبر، فكان هذا التغيير سبباً فى تقاعس أغلب من خلفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم الباذخة، وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم مختلفات الأجناس على الخروج للقتال وتكبد مشاقه .

ومنها أن كافة أمور الدولة المهمة كانت تنظر فى ديوان الوزراء تحت رئاسة السلطان ، فأبطل السلطان سليمان هذه العادة وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء ـ الصدر الأعظم ـ والسلطان لاه عن ذلك معرض لدسائس الوزراء ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه، وترتب على ذلك أن صارت الأمور بين الوزراء المغايرين للجنس العثمانى أصلاً ونسباً؛ إذ أن أغلبهم ممن أسلم أو تظاهر بالإسلام من النصارى .

ويرتبط بهذا أن عهد هذا السلطان العظيم شهد استفحال ظاهرة تدخل نسوة القصر (الحريم) فى شؤون الدولة مما أدى فى عهد خلفه إلى بروز ما أطلق عليه اسم « سلطنة الحريم » ، وقد ساعد على هذا التطور شخصية خطيرة هى جارية السلطان ، ثم زوجته فيما بعد، حرم السلطان التى أطلق عليها فى أوربا اسم «روكسلانا» وهو تحريف لكلمة Russalana بمعنى : الروشيد (٢) .

---

(١) عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى :منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ،تحقيق ودراسة د . فيصل عبد الله السكندرى ،الحولية (١٨)من حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، د.العدوى : الأمويون والبيزنطيون-ص٨١ حيث الحديث عن سابق أيام الإسلام بهذه الجزيرة وأول فتح إسلامى لها فى عهد معاوية ﷺ ، محمد فريد :الدولة العلية ص ٨١ وما بعدها .

(٢) فارسية بمعنى باسم أو ضاحك .

كانت روكسلانا فى الأصل جارية أسرتها القوات العثمانية ثم ما لبثت أن انتقلت إلى حريم السلطان القانونى، ورغم أنها لم تكن باهرة الجمال، فقد تميزت بالمرح والجاذبية ، مما أدى إلى سرعة تعلق سليمان بها، فلم يمض عام على دخولها إلى الحريم حتى أنجبت له ولداً أطلق عليه اسم والده السلطان سليم الأول فاتح الشام ومصر وقاهر دولة الفرس ، ونتيجة لهذا الإنجاب أصبحت روكسلانا هى الشخصية الثالثة فى القصر السلطانى بعد السلطانة الوالدة وجلبهار [1] وسلطان » والدة ابنه البكر الأمير مصطفى .

وسرعان ما سرت الشائعات فى القصر بأن السلطان لا يقنع بدورها كزوجة، ولكنه أولع بقضاء الساعات فى محادثتها ومناقشة شؤون الدولة معها. ولما كان ذلك أمراً جديداً بالنسبة لسلطان عظيم من آل عثمان، فلم تتردد روكسلانا فى استغلال ميول السلطان تجاهها فى خدمة طموحها، ولكن ببطء وذكاء فقد اضطرت السلطان إلى أن يستسلم لرغبتها فى أن يعقد قرانه عليها، كما عملت على تهيئة الجو لتولى ابنها غير الكفء سليم عهد أبيه، فأزاحت بتآمرها الصدر الأعظم الإدارى الماهر إبراهيم باشا والأمير الشجاع مصطفى الابن الأكبر للسلطان بأن حرضته على أن يأمر بقتلهما .

فقد أوحت إلى الصدر الأعظم رستم باشا زوج ابنتها ربيب نعمتها بذلك، فاستغل هذا فرص انتشاب الحرب بين الدولة والصفوية سنة ١٥٥٣م ووجود الأمير مصطفى ضمن قواد الجيش، وكتب إلى أبيه بأن ولده يحرض الانكشارية على عزله وتنصيبه هو هكذا بهتاناً وزوراً، فلما وصل الخبر إلى السلطان وكانت روكسلانا قد تمكنت من تغيير أفكاره نحوه، قام فى الحال قاصداً بلاد العجم متظاهراً بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش ، ولما وصل إلى المعسكر استدعى ولده المسكين إلى سرادقه وبمجرد دخوله خنقه بعض الحجاب فقتل رحمه الله شهيد دسائس زوجة والده، وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه .

---

(١) معناها : وردة الربيع .

وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ السلطان القانونى ، ولولا دسيسة هذه المرأة الأجنبية التى ربما كانت مؤجرة لهذه الغاية لبقى اسمه لاتشوبه شائبة، ولم تكتف هذه المرأة المتسلطة بقتل الأمير الشجاع ، بل أرسلت إلى مدينة بورصة من قتل ابنه الرضيع حتى قال أحد الشعراء فى ذلك :

يا دهر ويحك ما أبقيت لى جلداً   وأنت والد سوء تأكل الولدا

وحين توفى السلطان سليمان القانونى فى ٥سبتمبر سنة ١٥٦٦م جرى تنصيب سليم ابن روكسلانا سلطانًا، وكان المعروف عنه أنه منحل وكسول وهو فاتحة سلسلة من السلاطين الذين كانت تعوزهم الصفات اللازمة للحكم ، حتى ذهب كثير من المؤرخين إلى احتمال انقطاع سلسلة أبناء عثمان الذين لم يعودوا منذ ذلك الوقت يتحلون بالصلابة التى تميز بها السلاطين العشر الأول ؛إذ أن خلفاء سليمان كانوا منحلين ماديا ومعنوياً يوجههم حريم القصر وخصيانه وندماؤه (١) .

وأياً كان الأمر فيتولى سليم تقلد سيف عثمان للمرة الأولى عاهل لا يقود بنفسه جيش الإسلام بل ، يمضى أوقاته فى الملاذ الرخيصة بعد أن كان أسلافه يمضونها فى تصريف شؤون الدولة . ومن هنا يبدو حجم الضرر الذى ألحقته هذه المرأة الروسية بالدولة العثمانية وبالمسلمين ، حين تآمرت على أمير كفء كى تمهد السبيل لابنها المنحل ، وبالتالى لهذا السبب ولأسباب أخرى ألمحنا إليها سلفاً للارتكاس والتدهور الذى أصاب هذه الدولة العظيمة وجهودها الفتحية ونظمها الحضارية مما مكن القوى الأوربية من التكالب على ممتلكاتها وإثارة الفتن بين أرجائها الواسعة ، الأمر الذى تبعه انحسار المد الإسلامى فى البلقان وشرق أوربا وانسحاب القوات العثمانية منها بلداً تلو الأخرى ، مما كان له أبلغ الأثر فى التاريخ الإسلامى، والمسلمون فى هذه المنطقة مازالوا يعانون من توابعه حتى اليوم.

---

(١) انظر : محمد فريد :الدولة العلية ص ١٠٥ وما بعدها ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، السلطانة الروسية ص ٩٠ ـ ٩٣ .

انحسار المد الإسلامى عن البلقان وشرق أوربا :

فى خضم تقهقر العثمانيين وانسحابهم شرقاً انسحبوا ـ من بين ما انسحبوا منه ـ من بلاد البلقان بما فيها البوسنة والهرسك ونتيجة لهذا وقعت لأول مرة أعداد كبير من المسلمين تحت حاكم غيرهم،فهاجرالكثير منهم إلى الأناضول والبلاد الأخرى التى بقيت تحت الحاكم العثمانى ، وبالطبع كان الحاكم النصرانى العائد قاسياً على من بقى من المسلمين منعوتاً بالتشريد والاضطهاد ، ومحاولة فرض التنصير بكل سبيل . فأدى ذلك مرة أخرى بالكثير من المسلمين إلى الهجرة إلى تركيا .

وفى عام (١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م) ثار المسلمون فى البوسنة والهرسك على الحكم النمساوى بزعامة «على فهمى جابيخ»، ونجح المسلمون فى الحصول على الحاكم الذاتى فى الأمور الدينية فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٩م .

وعقب الحرب العالمية الأولى انهزمت فيها إمبراطورية النمسا ـ المجر ، تأسست الدولة اليوغسلافية لأول مرة حيث جمع فيها السلاف الجنوبيون ، وكانت فرحة المسلمين كبيرة بهذا الحدث ، حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار النمساوى، ولكن الأرثوذكس الصرب غدروا بالمسلمين بعد قيام يوغسلافيا،وتحت شعار الإصلاح الزراعى صادروا جميع أراضى المسلمين سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م)، ومنحوها للفلاحين الأرثوذكس ، فأدى ذلك إلى إفقار المسلمين وتأخيرهم بعد أن كانوا فى طليعة التقدم .

ولنأخذ مدينة بلجراد ـ عاصمة الصرب ـ الآن كمثال لما حدث للمسلمين فى يوغسلافيا ، فقد فتحها المسلمون سنة (٨٥٦هـ / ١٤٥٢م) ، واحتلها النمساويون سنة (١١٣٠هـ / ١٧١٨هـ)،ثم استرجعها العثمانيون سنة (١١٥٠هـ / ٧٣٨م) ، ثم قدموها للمرة الأخيرة سنة (١٤٢٥هـ/ ١٨٣٠م) . فتكون بذلك مدة دوام الحكم العثمانى الإسلامى فيها ٣٥٨سنة . وقد كانت هذه المدينة خلال القرن السابع عشر مدينة إسلامية زاهرة وعندما زارها الرحالة التركى أولياشلبى سنة (١٠٠٨هـ / ١٦٠٠م) ، وكان سكانها مائة ألف نسمة وثلاثة أرباعهم

مسلمون، وكان بالمدينة ٢٧٠مسجداً تقام فى ٣٣منها صلاة الجمعة وبها ١٧ تكية، و٨ مدارس ثانوية إسلامية ، و ٩د ور للحديث ،و٢٧٠ من الكتاتيب القرآنية .

وبعد أن انحسر الحكم الإسلامى عند المدينة قضى النصارى على المدارس والكتاتيب والمساجد كلها الواحدة تلو الأخرى ، قارن هذا بما فعله العثمانيون بدور العبادة المسيحية حين دخلوا هذه البلاد خاصة بعد أن هاجر عنها سكانها المسلمون، فمثلاً هدم مسجد رئيس أفندى وجعل ميداناً لسباق الخيل ، وبنى المسرح المركزى على أنقاض مسجد ثرية، والبرلمان اليوغسلافى نفسه هو فى الحقيقة مسجد «بثار» الذى كان أجمل وأكبر مسجد فى بلجراد ،وبنى فندق بالاسى على أنقاض مسجد آخر وهلم جرا، والمسجد الوحيد الذى نجا من الهدم بأعجوبة فى ذلك الوقت بقى لكونه أول مسجد بناه المسلمون فى بلجراد ، فأعطته الحكومة لمديرية الآثار، ولم يسترجعه المسلمون إلا سنة (١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م) وهو مسجد باير اقلى بنى سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢١م)، وحوله النصارى إلى كاتدرائية سنة (١١٥٠ هـ / ١٧١٨م) عندما احتلوا بلجراد ، ولكن استرجعه المسلمون سنة (١١٥٠هـ / ١٧٣٨م).

وعلى هذا كانت مدة الحكم العثمانى فى أوربا الشرقية كالآتى : فى البوسنة والهرسك ٤١٥سنة ، فى بلاد الصرب (صربيا) ٣٨٠ سنة ، وفى الجبل الأسود ٤٢٠ سنة ، وفى قوصوة (كوسوفا) ٤٣٠ سنة وفى مقدونيا ٥٤٧سنة .

ولعله من المناسب هنا أن نعطى لمحة سريعة عن كارثتين مفجعتين أصابتا المسلمين فى هذه المنطقة فى الوقت الحاضر ، وكانت بالطبع من مضاعفات انحسار المد الإسلامى عنها ، وهما :

كارثة البوسنة :

البوسنة والهرسك إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى الست وهى : الصرب وكرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك . وتقع جمهورية البوسنة والهرسك فى منتصف يوغسلافيا، يحدها من الشمال والغرب كرواتيا ،ومن الشرق الصرب ، ومن الجنوب الجبل الأسود، وقد دخل الإسلام

إلى البوسنة بوضوح مع دخول العثمانيين سنة (١٤٦٣م)، وقد ساعد على انتشار الإسلام فى البوسنة ثلاثة عوامل :

١ ـ الاضطهادات الدينية والمذهبية التى تعرض لها أهالى البوسنة بسبب اختلافهم فى المذهب مع كنيسة روما الكاثوليكية .

٢ ـ الدور الذى لعبته المدن التى أنشأها العثمانيون بعد أن تحولت إلى مراكز ثقافية ومراكز للدعوة الإسلامية .

٣ ـ اعتناق النبلاء للدين الإسلامى ساعد على اعتناق أبنائهم لهذا الدين بصرف النظر عن دعوى الامتيازات التى قيل: إن النبلاء كانوا يسعون للاحتفاظ بها فلم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام ، ولكن الذين دخلوا الإسلام دخلوا عن قناعة بسماحة هذا الدين وفضائله فى الغالب .

بعد ذلك بدأ الصراع بين الدولة العثمانية والنمسا خلال القرن السابع عشر ، وخلال هذا القرن والذى يليه قاتل المسلمون إلى جانب الدولة العثمانية ، بينما اشترك الصربيون والكروات كجنود لملك النمسا، وخلال تلك الحروب ظهر الوصف الذى يعتبر كرواتيا حائطا أمامياً للكاثوليكية .

وكانت هذه العبارة أحد المصادر العقائدية للإبادة الجماعية للمسلمين ، وحين بدأ العثمانيون التراجع والانسحاب من بعض المناطق فى هنغاريا (المجر) وسلوفينا ومجاوراتها بعد الحرب الكبرى مع القوى الأوربية بين عامى (١٦٨٣ ـ ١٦٩٩م) بدأت أعداداً كبيرة من المسلمين بالهجرة للبوسنة فى حين تحول للكاثوليكية من لم يستطع الانسحاب ، واختفى الوجود الإسلامى من تلك المناطق أو كاد .

وفى بداية القرن الثامن عشر جرى اضطهاد واسع للمسلمين القاطنين فى منطقة الجبل الأسود ،وفى عام (١٨٣٠) حصلت صربيا على وضع الحكم الذاتى إثر قرار من السلطان العثمانى، وفى القرن التاسع عشر حصلت صربيا والجبل الأسود على الاستقلال والسيادة وذلك بقرار برلين سنة (١٨٧٨م) وانسحبت الدولة العثمانية من بلاد البشناق (البوسنة والهرسك) تاركة السيطرة لدولة النمسا

والمجر، وبدأ الاضطهاد النمساوى للمسلمين، مما اضطر الكثيرين للهجرة إلى تركيا والبلاد المجاورة فى الشرق ، وأعدمت السلطات النمساوية عدداً من المسلمين، وأرسلت عدداً من المناضلين إلى السجون .

وفى ٢٨ يونيو ١٩١٤م تمكن أبناء غلاة الصربيين المقيمين بالبوسنة من اغتيال ولى عهد النمسا « الأرشيدوق فردينازد » بينما كان فى زيارة رسمية لسراييفو عاصمة البوسنة، وكان هذا الحادث هو الشرارة التى أشعلت الحرب العالمية الأولى، وعقب انهزام النمسا فى هذه الحرب تأسست الدولة اليوغسلافية وسيطر الصرب على هذا الاتحاد الجديد ، وقبيل الحرب العالمية الثانية وتحديداً فى عام (١٩٣٩م) توصل قادة الصرب والكروات إلى اتفاق ، دون استشارة المسلمين ، لرسم خريطة تقسيم البوسنة بين الطرفين تقسيماً يطوق مناطق المسلمين ، بحيث تظل البوسنة متقوقعة داخل صربيا الكبرى ، أما الكرواتيون فكانوا يريدون الاستيلاء على معظم المناطق الغربية والجنوبية؛ لأنها محاذية لجمهوريتهم، وأثناء هذه الحرب الكبرى واجه المسلمون عدواناً شرساً من الصرب ؛ إذْ قام هؤلاء فى سنة (١٩٤١م) بذبح ستين ألف مسلم و ألقوا بهم فى نهر الفولجا، وتحول النهر بذلك إلى نهر الدماء [١] .

ثم كانت كارثة نهاية القرن العشرين الأخيرة والتى حدثت على مرأى ومسمع من العالم المتحضر ومنا نحن المسلمين ،والتى خلفت أكثر من ١٥٠ألف قتيل فضلاً عن مئات آلاف المشردين بعد هدم المدن وتدمير القرى واستباحة أعراض النساء فى حالات اغتصاب جماعية وذبح الأطفال تحت شعار «التطهيرالعرقى والإبادة » Genocide .

كارثة كوسوفا :

قوصوة (كوسوفا) : إقليم يقع فى أقصى جنوب صربيا متاخماً لجمهورية ألبانيا من الشمال الشرقى، تقطنه أغلبية ألبانية مسلمة، وأقلية صربية أرثوذكسية .

---

(١) د . حرب : البوسنة ، صفحات متفرقة ، أحمد رمضان محمد :صرب يوغوسلافيا وحرب إبادة المسلمين ،مقال .بمجلة الوعى الإسلامى الكويتية عدد (٣٣٢)، والهرسك أكبر سجن للحرية وأفقر دولة فى العالم ،حوارات نشرت بمجلة الوعى الإسلامى،العدد (٣٣٧) رمضان ١٤١٤هـ/ فبراير ١٩٩٤م .

كانت بداية التطهير العراقى فى الحرب الروسية العثمانية التى وقعت عامى (١٨٧٧ ، ١٨٧٨م)،وشاركت فيها صربيا إلى جانب روسيا القيصرية،وقد شهدت هذه الحرب هزيمة القوات العثمانية فى قلب البلقان ،وفى إطار هذه الحرب عبرت القوات الصربية الحدود العثمانية إلى ولاية قوصوة ، وروعت السكان الألبان المسلمين ، وأجبرت عشرات الآلاف منهم على الهجرة .

ولجأت الإدارة الصربية إلى تجربة التطهير العرقى فى المناطق التى استولت عليها ؛ لدرجة أنه بعد سنوات قليلة لم يعد فى تلك المناطق ما يذكر بوجود الآخر المسلم غير المرغوب فيه. وهو نفس الإجراء الذى كررته صربيا مرة أخرى من خلال حرب البلقان سنتى (١٩١٢ ،١٩٢٣م)، عندما قامت بإزالة الحكم العثمانى من كوسوفا بعد قيامها بضم معظم أجزاء كوسوفا إليها، وأسرعت القوات الصربية بالتخلص من الأغلبية الألبانية فى كوسوفا كى يتم إخفاء الطابع العربى التاريخى والمقدس، من وجهة نظرهم مما يبرز المطالبة بضمها إلى صربيا؛ لذلك أخذت السلطات الصربية فى إرغام الألبان المسلمين ٩٥٪ والكاثوليك ٥٪ وقتئذ على اعتناق الأرثوذكسية ، كى يصبح أمر ذوبانهم فى الإطار الصربى الأرثوذكسى أمراً سهلاً .

كما قامت تلك السلطات بترويع السكان لإرغامهم على الهجرة إلى ألبانيا أو تركيا ، وبالتزامن مع ذلك قامت سلطات بلجراد بتطبيق سياسة الاستيطان فاستدعت الصرب من المناطق الأخرى ، وقامت بتوطينهم فى كوسوفا، وأصدرت فى فبراير سنة (١٩١٤م) ما أسمته مرسوم الاستيطان فى الأراضى المحررة حديثاً ، والذى وعدت فيه الحكومة الصربية المستوطنين الصرب بمنحهم (٩) هكتارات من الأراضى لكل عائلة ، بالإضافة إلى هكتارين لكل فرد من العائلة يتجاوز عمره السادسة عشرة، وضمن هذا المرسوم للقادمين الجدد الانتقال المجانى والإعفاء من الضرائب لمدة ثلاث سنوات .

وقد وصل الحماس لتصريب كوسوفا إلى درجة أن رئيس الحكومة الصربية توقع فى مارس (١٩١٤م) أن ينجح فى استقدام حوالى ربع مليون صربى من

المهاجرين فى أمريكا لتوطينهم كوسوفا محل الألبان الذين يتم إرغامهم على الهجرة ،والذين غادورا الإقليم منهم نحو ٥٠ ألف شخص خلال عامى (١٩١٣ ، ١٩١٤م)، ولولا اندلاع الحرب العالمية الأولى فى أغسطس (١٩١٤م) بين النمسا وصربيا واختراق القوات النمساوية صربيا فى نهاية عام (١٩١٥م) لما توقف الاستيطان الصربى ، فقد منحت الحكومة النمساوية ألبان كوسوفا نوعاً من الحكم الذاتى الثقافى حتى نهاية تلك الحرب ، ورغم أن قوات الحلفاء الفرنسية شاركت بقوة فى إنزال الهزيمة بالقوات النمساوية البلغارية ، ودخلت مدن كوسوفا فى خريف (١٩١٨م) مع الجيش الصربى ، إلا أن الصرب اعتدوا دخول الإقليم بمنزلة التحرير الصربى الثانى لكوسوفا ، وتم إعادة ضمه إلى إطار الدولة الجديدة التى سميت يوغسلافيا ، والتى أعلنت فى ديسمبر (١٩١٨م) ، ومن ثم انبعثت من جديد سياسة الاستيطان التى كانت بلجراد قد بدأتها فى عام (١٩١٤م) بهدف تغيير التركيبة الديموجرافية .

وقد جاء اندلاع الحرب العالمية الثانية ليجمد عملية الاستيطان الصربية بعد أن أدت تطورات تلك الحرب فى أبريل سنة (١٩١٤م) متمثلة فى اختراق وتفتيت يوغسلافيا ، إلى ضم معظم كوسوفا إلى ألبانيا والهجرة المعاكسة لمعظم الصرب الذين استوطنوا كوسوفا خلال الفترة من (١٩١٨إلى ١٩١٤م) .

ومع أن الألبان وجدوا أنفسهم فى دولة موحدة من عام (١٩٤١م) إلى عام (١٩٤٤م) ، وهو الأمر الذى عنى لهم الكثير فإن السؤال حول مصير كوسوفا والبلقان عاد ليطرح بين الأحزاب الشيوعية التى قادت حروب التحرير فى يوغوسلافيا وألبانيا وبلغاريا واليونان، وبرز من جديد الحديث عن الفيدرالية البلقانية . وفيما يخص كوسوفا تحديداً اتفق الحزبان الشيوعيان الألبانى والروسى على إعطاء الأفضلية للمقاومة وحرب التحرير وإرجاء مسألة الحدود إلى ما بعد الحرب .

وحصل إقليم كوسوفا على الحكم الذاتى اعتباراً من عام (١٩٤٥م) فى عهد الرئيس الأسبق جوزيف بروز تيتو الذى بذل جهوداً معقولة فى سبيل التنمية الاقتصادية وتحقيق نوع من التوازن بين كوسوفا وسائر الأقاليم اليوغسلافية،

وأصدر فى عام (١٩٧٤م) دستوراً جديداً حصل بموجبه ألبان كوسوفا على حكم ذاتى موسع إلى حد ما ، وأصبح من حقهم الحصول على قروض خارجية دون الرجوع إلى الحكومة المركزية ، وأصبحت كلية بريتشينا العاصمة جامعة مستقلة ، ولكن فور وصول الرئيس الصربى بودان ميلوسوفيتش إلى الحكم سنة ١٩٨٩م ألغى الحكم الذاتى لكوسوفا، وبدأت وقائع المأساة الأخيرة بنهاية القرن .

ينطلق الصرب فى هوسهم البغيض من عدة أساطير أسهم وصول الدكتاتور ميلوسوفيتش فى إعادة تأجيجها بعد سنوات طويلة ظلت خامدة فيها فى عهد تيتو الذى كان يتولى رئاسة الاتحاد اليوغسلافى قبل أن يساعد التعصب العرقى لميلوسوفيتش فى تفتيته إلى ست دول بعد حروب دامية .

أكثر هذه الأساطير فجاجة هى الزعم بأن كوسوفا أرض صربية خالصة ، وأنها تمثل مهد الصرب وتعنى بالنسبة لهم مكانًا أهم من القدس .وزاد ميلوسوفيتش تأجيج هذه الأسطورة فى ٢٨يونيو (١٩٨٩م) فى ذكرى مرور ٦٠٠ عام على معركة كوسوفا ـ وهى مناسبة سنوية يحتفل الصرب بها رغم هزيمتهم فيها على يد السلطان العثمانى مراد الأول كما ذكرنا ـ عندما وقف فى حشد جماهيرى ينتفض حماساً وهو يقول : إن المعركة من أجل تحقيق آمال شهداء كوسوفا سوف تستمر بكل الوسائل ، ولن يهزم الصرب بعد اليوم .

ومن المعروف تاريخياً أن كوسوفا أوقوصوة ـ من قبل ـ لم تكن يوماً مهداً للصرب ، وأن ذلك الإقليم الذى تصل مساحته إلى ١٠٨٧٧كم٢ ، ويصل عدد سكانه إلى ٢,٥ مليون نسمة ، نسبة الألبان المسلمين فيهم تشكل ٩٠٪ ، هذا الإقليم يمثل امتداداً لأراضى جمهورية ألبانيا، ويعود سكانه فى أصلهم إلى الشعب الإيليرى الذى يرجع تاريخه إلى مايزيد على ٢٠٠٠ سنة ، ويعرف المؤرخون أبناء شعب كوسوفا الذين يمتلكون لغتهم الخاصة بأنهم يحاربون أشداء ،وأن بلادهم المعروفة باسم إيليريا كانت مملكة عاصمتها اسكودار ، وهى مدينة مازالت تحمل الاسم نفسه وتابعة للإقليم .

وقد سقطت بلادهم فى أيدى الرومان سنة (١٦٨ق.م) فيما ظل أحفاد ذلك

الشعب الإيليرى من الألبان يقطنون هذا الإقليم ،وقد أطلق عليهم الألبان ـ نسبة إلى جبال الألب ـ لعدة قرون .

والصرب ، وهم قبائل تنتمى إلى العرق السلافى ، كانوا يسكنون فى شرق أوربا شمال نهر الدانوب لم يعبروا هذا النهر إلى منطقة البلقان إلا فى القرن السابع الميلادى، عندما استدعاهم الإمبراطور البيزنطى بروفيروجينيتوس لمساعدته فى طرد الغزاة من قبائل الآفار .

ولم يتوسع الصرب نحو كوسوفا إلا فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، عندما انتهزوا فرصة ضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن نشبت فيها الحروب الأهلية ليزحفوا على كوسوفا ويقتطعوها من الإمبراطورية ، حتى جاء العثمانيون بقيادة السلطان مراد الأول فى عام (١٣٨٩م) ليهزم لازار ملك الصرب فى معركة كوسوفا التى قتل فيها لازار ، واستشهد مراد ـ كما سلف ـ ثم أعاد العثمانيون الكرة واستطاعوا السيطرة تماماً على المنطقة فى منتصف القرن التالى .

بقيت كوسوفا ضمن أملاك الدولة العثمانية لمدة خمسة قرون حتى اندلعت حرب البلقان عام (١٩١٢م)، ومنذ معركة كوسوفا فإن تاريخ الصرب ـ الذى أصبح ينقسم إلى ما قبل تلك المعركة وما بعدها ـ انتقل من التاريخ الحقيقى إلى الأسطورة، واستطاع الهوس العرقى ضخ روح الانتقام ضد المسلمين الألبان طيلة القرون الستة الماضية .

وفى منتصف القرن التاسع عشر قام المشروع القومى الصربى المعروف باسم مشروع «غراشانين» على توسيع صربيا على حساب المناطق المجاورة ، التى كانت تتبع الدولة الصربية فى القرون الوسطى، كوسوفا ومقدونيا والبوسنة،وكان المشروع الصربى يركز ـ ومازال ـ على الحق التاريخى والأرض المقدسة ، ويطالب باسترداد وضم هذه الأراضى إلى صربيا ،بينما يتجاهل كل وجود آخر وثقافى فيها [1] .

---

(١) مالكوم : البوسنة ،زكريا عبد الجواد: عودة لاجئ كوسوفا مشهد لآخر كوارث القرن العشرين استطلاع ، بمجلة العربى الكويتية ، العدد (٤٨٩) أغسطس ١٩٩٩م .

وعلى الرغم من ذلك فـإنه أمكـن للمـناطق غـير المسلمة فى نهاية الأمر الاستقـلال بيسـر عـن الاتحاد اليوغسلافى البائد كمقدونيا وسلوفينا وكرواتيا . . .إلخ ، ولم تقم القائمة إلا فى وجه المناطق المسلمة كالبوسنة والهرسك وكوسوفا حين رغبت فيما تحقق لغيرها ولم تعقد إلى الآن ، وحدث مما نعرفه من أهوال الكارثة.

والغريب أن البعض ـ ومن بينه كثير ـ من وسائل إعلامنا ما يزال يصر على أنها حرب عرقية لا دينية ،فبم نسمى ذبح المسلمين ـ والمسلمين فقط ـ بالسكاكين والتمثيل بجثثهم حتى بعد قتلهم ، ورسم الصلبان الأرثوذكسية على جثثهم ، إن لم تكن حرباً دينية صليبية ؟! وبم نسمى اغتصاب المسلمات ـ والمسلمات فقط ـ وتقطيع أثدائهن وبقر بطون الحوامل منهن للتمثيل بالأجنة ، إن لم تكن دينية صليبية ؟! وبم نسمى تصفية الشباب المسلم ـ والمسلم فقط ـ وبتر أعضائهم التناسلية وإلقائهم أحياء فى الماء المغلى ، وذبحهم للشواء شى الذبائح ، إن لم تكن حرباً دينية صليبية ؟!! (١) .

يا أمة الحق ليس اليوم تبتهجى   والشيـخ يذبـح والأطفـال كالغنـم
للمسلمين بكل الأرض مذبحة   ونحن فى لهونا فـى الغى والظـلم(٢)

---

(١) د . حرب : البوسنة ص ١٩١ .
(٢) منقولة عن : د . مهدى قاضى ، قصيدة : «يا أمة الحق » جريدة المسلمون ، عدد (٤٣٢) .

المراجع

أولاً : المراجع العربية والمصرية :

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أحمد أبى الكرام الشيبانى ، ت ٦٣٠ هـ) :

١ ـ الكامل فى التاريخ ، تصحيح : د . محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

أرنولد (توماس) :

٢ ـ الدعوى إلى الإسلام ، ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .

إقبال (عباس) :

٣ ـ تاريخ إيران بعد الإسلام ، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه : د . محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

ابن بطوطة (أبو عبد الله الطنجى ، ت ٧٧٩هـ) :

٤ ـ الرحلة المسماة : «تحفة النظار فى غرائب الأمصار» شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

ابن البيبى :

٥ ـ سلجوقنامة، ترجمة عن الفارسية إلى العربية د . محمد السعيد جمال الدين ، الدوحة قطر سنة ١٩٩٥م .

بيومى (محمود) :

٦ ـ البوسنة والهرسك أكبر سجن للحرية وأفقر دولة فى العالم ، حوارات أجراها

ونشرت فى مجلة الوعى الإسلامى ، العدد (٣٣٧)، رمضان ١٤١٤هـ/ فبراير ١٩٩٤م .

التونجى (د . محمد) :

٧ ـ أول جمعية إسلامية تنشأ فى المجر ، مقال بمجلة العربى الكويتية ، العدد (٢٨٣) ، شعبان ١٤٠٢هـ / يونيو ١٩٨٢م .

حرب (د . محمد) :

٨ ـ البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ، نشر المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى ، القاهرة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

حلمى (د . أحمد كمال الدين) :

٩ ـ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

محمود (أحمد رمضان محمد) :

١٠ ـ صرب يوغسلافيا وحرب إبادة المسلمين ، مقال بمجلة الوعى الإسلامى الكويتية، عدد (٢٢٢) ، ١٤١٤هـ/ أكتوبر ١٩٩٣م.

الخطيب (مصطفى عبد الكريم) :

١١ ـ معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م .

الريس (د . محمد ضياء الدين) :

١٢ ـ الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م .

زيدان (د . يسرى أحمد) :

١٣ ـ التاريخ السياسى ومظاهر الحضارة فى الشرق الإسلامى زمن المماليك والعثمانيين ، دار النصر للنشر والتوزيع ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

سليمان (د . أحمد السعيد ـ مترجم ومعلق ومضيف) :

١٤ ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف .

الشاذلي (د . أحمد عبد القادر) :

١٥ ـ الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا الحاضر والمستقبل ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

شلبي (د . أحمد) :

١٦ ـ موسوعة التاريخ الإسلامي ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٩م ، مكتبة النهضة المصرية .

الشاذلي (د . عبد العزيز) :

١٧ ـ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها الأنجلو المصرية .

شهاب الدين (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي السيوطي ، ٨١٣ ـ ٨٨٠هـ) :

١٨ ـ إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: د . أحمد رمضان أحمد ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢م .

الصياد (د. فؤاد عبد المعطي) :

١٩ ـ الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر ١٩٨٧ م .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ) :

٢٠ ـ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

عاشور (د . سعيد عبد الفتاح) :

٢١ ـ العصر المماليكي في مصر والشام، الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م .

العباسى (عبد الرحيم بن عبد الرحمن) :

٢٢ ـ فتح رب البرية فى فتح رؤوس الأبية ، تحقيق ودراسة : د . فيصل عبد الله الكندرى، الحولية (١٨) من حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

عبد الجواد (زكريا) :

٢٣ ـ عودة لاجئى كوسوفا مشهد لآخر كوارث القرن العشرين، استطلاع بمجلة العربى الكويتية ، عدد (٤٨٩) أغسطس ١٩٩٩م .

عبد الرحمن (أحمد) :

٢٤ ـ داغستان بعد الشيشان تواجه إمبراطورية الأمس ، مجلة الوحدة تصدر عن مؤسسة الفكر الإسلامى ، طهران ، عدد (٢٣١) ١٤٢٠هـ / تشرين الأول ١٩٩٩م .

عبد اللطيف (د . عبد الشافى محمد) :

٢٥ ـ العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

العدوى (د . إبراهيم أحمد) :

٢٦ ـ الأمويون والبيزنطيون ، دار رياض الصالحين، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٢٧ ـ الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، دار رياض الصالحين ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٢٨ ـ المجتمعات الإسلامية ماضيها وحاضرها ، بدون ناشر وتاريخ طبع .

٢٩ ـ المسلمون فى القوقاز ، سلسلة « دراسات إسلامية » الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، عدد (١٢)، القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

ابن عربشاه (شهاب الدين أبو العباس أحمد الدمشقى ، ت ٨٥٤ هـ) :

٣٠ ـ عجائب المقدور فى أخبار تيمور، تحقيق: على محمد عمر، القاهرة ١٩٧٩م.

العطية (د . جليل) :
٣١ ـ أصول الصهيونية، مجلة العربى الكويتية، العدد (٣٧٧) أبريل سنة ١٩٩٠م .
عويس (د . عبد الحليم) :
٣٢ ـ العقل المسلم فى مرحلة الصراع الفكرى، دار الصحوة ، الطبعة الثانية ١٩٩٩م .
العيارى (د . شفيق إبراهيم) :
٣٣ ـ تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .
عيسى (د . هاشم عبد الراضى محمد) :
٣٤ ـ قضايا ومواقف من تاريخ الخلفاء الراشدين ، دار النصر للتوزيع والنشر ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م .
فامبرى (أرمينيوس) :
٣٥ ـ تاريخ بخارى ، نهضة الشرق ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٨٧م .
فرانك (أيرين ، ديفيد برونستون) :
٣٦ ـ طريق الحرير ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٧ م .
فريد بك (محمد) :
٣٧ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م .
قاسم (د . قاسم عبده) :
٣٨ ـ ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة الكويتية ، عدد (١٤٩) مايو ١٩٩٠م .
كسبة (مصطفى دسوقى ، معد ومحرر) :
٣٩ ـ المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز ، ثلاثة أجزاء ، هدية مجلة الأزهر، جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ .

مالكوم (نويل) :

٤٠ ـ البوسنة ، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٧م.

مانتران (روبير) :

٤١ ـ أبناء جنكيز خان « الخانات العظام » ترجمة : أحمد خضر ، بحث بمجلة الثقافة العالمية عدد (٨٣) يوليو أغسطس ١٩٩٧م .

محمد (جمال فوزى) :

٤٢ ـ الأحوال الحضارية فى إيران من سنة ٤٨٥هـ إلى سنة ٦٢٨هـ ، رسالة دكتوراه بدار العلوم ١٩٩٧م .

٤٣ ـ أوضاع غير المسلمين بإيران والعراق فى عهد الإيلخان أرغون،بحث منشور ضمن ملف ندوة : الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى ٣٠ نوفمبر ـ ١ ديسمبر ١٩٩٨م بكلية الآثار بجامعة القاهرة .

مصطفى (د . أحمد عبد الرحيم) :

٤٤ ـ السلطانة الروسية فى البلاط العثمانى ، مجلة العربى الكويتية ، العدد (٢٨٣) شعبان ١٤٠٢هـ / يونيو ١٩٨٢م .

منروف (زاهد الله بوريبوى أحمدوف) :

٤٥ ـ العرب والإسلام فى أوزبكستان ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

نوريس :

٤٦ ـ الإسلام فى البلقان ، ترجمة : عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الله ، ٦٧٧ ـ ٧٣٣ هـ) :

٤٧ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء السادس والعشرون ، تحقيق : محمد فوزى العنتيل ، الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

هريدى (د . محمد عبد اللطيف) :

٤٨ ـ الحروب العثمانية الفارسية وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوربا ، دار الصحوة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

هويدى (فهمى) :

٤٩ ـ هل نعلن موت الأمة ؟! مقال بجريدة الأهرام ، القاهرة ، بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٩٩ م .

ثانياً : المراجع الفارسية :

أقاسى (مهدى) :

٥٠ ـ تاريخ خــوى ، انتشارات مــؤسسة تاريخ وفرهنك ، إيران شماره ، سلسلة تاريخ فرباستان شناس .

الحسينى (غياث الدين بن همام الدين المعروف بخوائدير ، ت ٩٤٢ هـ) :

٥١ ـ تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد بشر از ،انتشارات كانجانه خيام ١٩٥٤م .

شتا (د . إبراهيم الدسوقى) :

٥٢ ـ المعجم الفارسى الكبير ، مدبولى ١٩٩٢م .

فضل الله (رشيد الدين ، ت ٧١٨هـ) :

٥٣ ـ جامع التواريخ بسعى واهتمام : أحمد آتش از ، انتشارات انجمن تاريخ ترك أنقرة ١٩٦٠ م .

مشكور (د . محمد جواد) :

٥٤ ـ تاريخ تبريز تابايان قرن نهم هجرى ، سلسلة انتشارات انجمن آثارملى (٩٢) تيرماه ١٣٥٢ هـ .

ثالثاً : المراجع الإنجليزية :

55 - Henery H. Haworth : History of the mongols, London. 1876.

56 - Mongol, pubished in the encyclopedia britannica, Vol. 15, 1970 .

57 - percysykes : A history of perisa, London, 1930 .

58 - The combridge history of Iran, Vol. 5 (the saljuq and mongol periods) 1968.

الفهرس

رقـــم الإيـــداع ١٠٤٨٠ / ٢٠٠٤ م

I.S.B.N. : 977 - 15 - 0472 -X

هذا الكتاب

* من الأندلس (الفردوس المفقود) إلى تيمور الشرقية ، مايزال الجسد الإسلامى ينزف بسبب ما يقتطع منه من أعضاء وما يقتص من أطراف المره تلو المره .

* وقد ظل أقصى الطرف الشمالى الغربى من ديار الإسلام نسياً منسياً فى الذاكرة الإسلامية إلى أن قفز به إلى موقع الصدارة فى السنوات الأخيرة ماتعرض ومايزال يتعرض له المسلمون هناك من كوارث وأهوال ومذابح بشعة بدءاً بالبوسنة فالشيشان فكوسوفا فداغستان فالشيشان مرة أخرى وليست الأخيرة فى أغلب الظن .

* وفى هذه الإطلالة ألقى المؤلف الضوء على جذور الصراعات الحالية فى هذه المنطقة بمحاولة التعرف على تاريخ المسلمين فيها خصوصاً زمن العثمانيين .

* كما كان المؤلف موفقاً من خلال هذه الإطلالة الموجزة فى عرض السمات العامة لتاريخ الإسلام والمسلمين فى بلاد القوقاز والبلقان ، ذلك التاريخ الذى يشهد لأهله أنهم حين يمتلكون القوة وتتيسر لهم الفتوح ، فإنهم يكونون أكثر تسامحاً وأعظم نبلاً وأرقى إنسانية تجاه الآخر ، فى مقابل عجرفة واستبداد وغطرسة وبلطجة وقسوة وعدوانية هذا الآخر حيالهم حين يمتلك أسباب القوة وتنقلب الحال لصالحه .

* ودار الوفاء: يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام رجاء أن يعم به النفع والله الموفق .

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع -ج.م.ع -المنصورة
الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ص.ب ٢٣٠ ت / ٢٢٥٦٢٣٠ فاكس ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠
E-MAIL:darelwafa@HOTMAIL.COM
WWW.EL-WAFAA.COM